

سحر مصر

فى كتابات الرحالة الإنجليز فى القرن التاسع عشر

المكتبة
الوطنية
للثقافة



المشروع القومي للترجمة

تأليف: رشاد رشدى
ترجمة: جمال الجزيرى
مراجعة وتقديم: فاطمة موسى

346



عالم رشاد رشدي - في هذا الكتاب - عددًا وفيرًا من كتب
الرحلة إلى مصر التي مازالت تمتع القارئ حتى يومنا هذا، يبرز
بينها عدد من الأقلام النسوية سجلت المذكرات والرسائل
الشخصية أو دجت مقالات مفصلة للنشر في الصحف
والمجلات، وقد أدى تيسير السفر بالبوخر واستتباب الأمن في
ربوع مصر ونزول شركات نقل أجنبية إلى الميدان بخطوط
نقل برية ومائية منتظمة إلى زيادة عدد السائحين الأثرياء
الذين يقضون الشتاء في الأقصر والصف في فرنسا.

كما يقدم وصفًا لآثار الإسكندرية والمناطق والمحيط بها،
ويعرض موضوع حريق مكتبة الإسكندرية وما ورد في
كتابات المؤرخين المسلمين من أخبار تلك الأحداث التي
مازالت محل جدال حتى يومنا هذا، كل ذلك بموضوعية
وحياة علمية التزم به الرحالة حسب ما تيسر له وتحقق منه.



المشروع القومي للترجمة

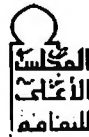
سحر مصر

(في كتابات الرحالة الإنجليز في القرن التاسع عشر)

تأليف : رشاد رشدي

ترجمة : جمال الجيزري

مراجعة وتقديم : فاطمة موسى



٢٠٠٢

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد ٢٤٦

- سحر مصر (في كتابات الرحالة الإنجليز في

القرن التاسع عشر)

- رشاد رشدي

- جمال الجزيري

- فاطمة موسى

- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة كاملة لكتاب :

The Lure of Egypt

تأليف : Rashad Rushdy, ph.D

الصادر عن : The Anglo -

Egyptian Bookshop

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت : ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس : ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E.Mail : asfour@onebox.com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

مقدمة

كانت مصر معبر الأوروبيين إلى الشرق، أوسطه وأقصاه، وكانت الإسكندرية قبل حفر قناة السويس هي ميناء الوصول للقادم من أوروبا تشاركها دمياط ورشيد، حتى شُقت ترعة المحمودية في عصر محمد علي فتركز وصول المراكب التي تحمل المسافرين في الإسكندرية، يقيمون فيها أياماً أو أسابيع كل حسب هدفه من الرحلة، ثم تحملهم المراكب في ترعة المحمودية ثم فرع رشيد إلى ميناء بولاق في ضواحي القاهرة، ثم القوافل وفيما بعد عربات تجرها الخيل إلى ميناء السويس، حيث يستقلون المراكب الكبيرة إلى الهند والملايو وغيرها من بلاد الشرق الأقصى، وكان استعمار إنجلترا للهند قد استقر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بعد أن انتصرت جيوش شركة الهند الشرقية على الجيوش الفرنسية المنافسة وطردت فرنسا من شبه الجزيرة الهندية، وتمت لها السيطرة على الأمراء والملوك الهنود بضرب بعضهم البعض تارة والحرب السافرة تارة أخرى.

وشهدت مصر في الربع الأخير للقرن الثامن عشر سيلاً من المسافرين الإنجليز ينزلون إلى الإسكندرية ويعبرون مصر إلى الهند ليعملوا في صفوف الجيش ومناصب القضاء والإدارة أو للعمل بالتجارة وغيرها من المهن، الكل تدفعه الرغبة في الإثراء السريع، ويسجل عدد منهم أو من زوجاتهم أو أخواتهم مشاهداتهم في هذه البلاد البعيدة - غريبة العادات والمناظر - وقد ينشر المسافر مذكراته في كتاب عند عودته، أو يضمّن رسائله إلى أهله فينشرونها من بعده، ونجد فيها اليوم مادة ثرية بالمعلومات عن بلادنا وأثارتنا كما رأها أولئك الوافدون الغرباء الذين كانوا يحرصون - بصرف النظر عن الهدف الأصلي للرحلة - على زيارة الآثار التي سمعوا عنها في القصص والمبالغات، وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر زاد عدد الرحالة الأوروبيين الذين ينزلون الإسكندرية ويعبرون إلى القاهرة ثم يصعدون في النيل إلى الأقصر لمشاهدة الآثار بعد أن استتب الأمن في البلاد (تحت حكم محمد علي) وزاد عدد الكتب المنشورة عن هذه الرحلات التي تكشف عن الصورة المسبقة التي يتوقعها الوافدون إذ تطأ أقدامهم أرض بلادنا للمرة الأولى، والخيال الرومانسي يربط الإسكندرية بالإسكندر وكليوباترا، ويربط العرب بشخصيات من التوراة والإنجيل.

كانت كتب الرحالة مليئة بالمعلومات والتواريخ والتعليقات والهوامش على ما ورد في كتابات الأولين، والحكم الفلسفية المستقاة من مشاهدة أطلال الماضي تشهد بزوال المجد عن كل متكبر جبار، إذ كان همُّ الكاتب أن يضيف إلى حصيلة الفكر والمعرفة الإنسانية، إلا أن الباحث قد يقع على مذكرات أو رسائل مسافر عاوى قليل العلم بكتابات الأولين، تسجل التجربة في مواجهة هذا الآخر الغريب، والوقائع اليومية التي تكتنفها، وقد يجد فيها القارئ الحديث عنصراً من الفكاهة، إذ تتحول المواجهة الحضارية إلى كوميديا.

كانت علاقة مصر بدول أوروبا وكذلك تاريخ الاستعمار الإنجليزي وتدخل القوى الأوروبية في مصائرنا من أهم الموضوعات التي شغلت أساتذة التاريخ في جامعاتنا، وقد عرج بعضهم على دراسة كتب الرحالة الأوروبيين ورسائل قناصل تلك الدول إلى حكوماتهم، لما تزخر به من مادة لا غنى عنها للمؤرخ، كما كانت كتب الرحالة من أهم الموضوعات التي عنى بها دارسو اللغات الأجنبية في الجامعة المصرية؛ إذ أتيح لهم السفر إلى الخارج للتحضير لدرجة الدكتوراه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حين بدأ تأهيل الباحثين المصريين لتولى شئون التدريس بالجامعة، فكانت كتب الرحالة الإنجليزي موضوعاً لباحثين من أول ما أنجز من هذه الرسائل: درس د. محمد أنيس كتابات الرحالة الإنجليزي في الربع الأخير من القرن الثامن عشر في رسالة حصل بها على دكتوراه في التاريخ من إنجلترا سنة ١٩٥٠، ودرس د. محمد رشاد رشدي أدب الرحالة في النصف الأول من القرن التاسع عشر وحصل على دكتوراه في الأدب الإنجليزي من إنجلترا في نفس العام، كان موضوعها بالتحديد الرحالة الإنجليزي في مصر في عهد محمد علي ١٨٠٥-١٨٤٧، وكان التأريخ لحكم محمد علي باشا وتوثيق فتوحاته وإصلاحاته من أول الموضوعات التي تصدى لها المؤرخون المصريون منذ افتتاح الجامعة المصرية في العقد الثاني من القرن العشرين، وخروج أبناء الجامعة إلى جامعات أوروبا لاستكمال تأهيلهم في مجال البحث الحديث، كان شفيق غريال عميد المؤرخين المحدثين في مصر أول من فتح باب البحث في تاريخ مصر الحديث في دور الوثائق والمكتبات في بريطانيا وغيرها من دول أوروبا، فكانت رسالته المنشورة في لندن سنة ١٩٢٨ بعنوان : The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mohammad Ali (1928) فاتحة ومرجعا لكل ما تلاها من دراسات في العلاقات بين مصر وبريطانيا سواء كان هدف الدراسة سياسياً أو تاريخياً أو أدبياً.

حصر رشدي مئات الكتب التي كتبت عن مصر، ولم يقتصر على الكتب المنشورة في عهد محمد علي بالضبط بل تعداه بما قد يزيد على عقد أو عقدين؛ لأن الظاهرة الأدبية لا

يمكن تحديدها بنهاية عقد بالتمام والكمال، كان بحثه فى نطاق قسم الأدب الانجليزى بجامعة ليدز وتحت إشراف أستاذ كبير هو بونامى دوبريه وقد عمل أستاذًا للأدب الإنجليزى فى جامعة فؤاد (القاهرة) فى العشرينيات، فلم يقتصر البحث عن التأريخ والبليوجرافيا، بل كان حتماً يقوم على التصنيف الأدبى ودراسة تطور الأسلوب ووجهة نظر المؤلف، وأضاف الباحث غرضاً جديداً من أغراض البحث لم يكن شائعاً بعد بين النقاد العرب فى منتصف القرن العشرين، وهو ما يسمى اليوم بدراسات التلقى أو رصد استقبال العمل الأدبى أو الفنى عموماً، مما يشكل اليوم مبحثاً أساسياً فى دراسة التذوق وعلم الاجتماع الأدبى والدراسات الإعلامية، كانت المجلات الفصلية والشهرية من دعائم سوق النشر والنقد فى بريطانيا فى القرن التاسع عشر، وكانت مادتها أساساً هى تلخيص الكتب فى الموضوعات الجادة ونقدها، كان كتابها من كبار رجال الأدب يؤجرون بمكافآت سخية (يتعيشون منها فى الغالب) وتُنشر عروضهم المطولة غفلاً من الإمضاء، توفيراً لحرية النقد والتقييم، وكان لكل حزب سياسى أو طائفة عقائدية أو جماعة من أى نوع مجلتها التى يعتمد عليها المشتركون فى تكوين الرأى عما يجرى نشره فى السوق، وتحصيل المعلومات الجديدة فى ميادين كثيرة من مجالات النشر، وقد يقتصر كثير من القراءة على قراء التلخيص المطول وتبنى رأى الناقد العمدة المجهول (فى الظاهر) وهذه الدوريات القديمة كما نسميها لا تخرن أو يلقي بها فى «الكهنة» بل تجلد وت فهرس، وكانت تشغل رفوف القاعة الدائرية (قاعة الإطلاع الرئيسة) فى مكتبة المتحف البريطانى سابقاً وقاعات الإطلاع فى مكتبات الجامعات البريطانية، قريبة إلى يد الباحث يجد فيها مرآة لفكر العصر موضوع بحثه، ودليلاً ملموساً على تطور الذوق الأدبى والمعرفة العلمية من عصر إلى عصر.

قال رشاد رشدى يصف المنهج الذى اتبعه فى البحث : «كانت تلك المجلدات الثقيلة (من كتب الرحالة) - بعد أن حصرتها وصنفتها فى بليوجرافيا مطولة - تمثل كتاباً مغلقاً أمام عيني، لا أجد منفذاً لبحثه، حتى نصحنى الأستاذ دوبريه أن ألقى نظرة على رفوف مجلات العرض القديمة review ففتحت أمامى طاقة من نور، إذ نبضت كتابات الرحالة بالحياة أمام ناظرى، وأدركت المقصد والغرض من كتابتها فى ضوء توقعات القراء والناشرين، أدركت أن عديداً من تلك الكتب كانت تلبي حاجة ورغبة عند القراء، وأن الرحالة فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر كانوا يقيمون حسب ما يضيفونه إلى حصيلة المعرفة الإنسانية عن بلاد بعيدة، لم تكن أصلاً فى نطاق اهتمامهم، حتى لفتت الحملة الفرنسية

الأنظار إليها وإلى أهمية موقعها بالنسبة للحفاظ على إمبراطوريتهم فى الهند، وإلى عجائب الآثار التى تقوم فى صحرائها، وإلى نيلها وخصب أرضها، وتغيرت النغمة بتغير بؤرة الاهتمام عندما كثر عدد الوافدين وفاضت الكتب بالمعلومات التى كثرت وتشعبت حتى أضحت من اختصاص الباحثين المختصين فى المصرىات واللغات قديمها وحديثها، والمساحين والجغرافيين، والرسامين يصورون المعابد والآثار بدقة وإتقان.

نشر رشاد رشدى الكتاب المترجم بين يدينا عام 1950 بعد عودته من جامعة ليدز، وقد لخص فيه المادة البحثية التى أعدها لرسالة الدكتوراه، اقتصر فى هذا الكتاب على الملامح الرئيسة لتطور كتابات الرحالة عن مصر فى عهد محمد على الذى يكاد يغطى النصف الأول من القرن التاسع عشر بأكمله بدون أن يثقل النص بالهوامش والتوثيق، وقد كثر عدد الوافدين من أوروبا، وفتح محمد على بعد أن استتب له الأمر الباب على مصراعيه للتجار والمغامرين والخبراء من جنسيات أوروبا المختلفة، وإن وجد الفرنسيون عنده حظوة أكثر من غيرهم.

شهد عصر محمد على دخول التلغراف وقاطرات البخار فى مصر، وقبض على زمام الحكم بيد قوية، وبعد القضاء على المماليك ساد الأمن فى البلاد ويسر الانتقال فى أنحائها، وشق الترع ورخص لشركات النقل باستخدام البخار فى السكة الحديد وفى النقل المائى، عمل لديه العديد من الخبراء (والمدعيين) الأوروبيين فى مشروعات هندسية وتجارية وحربية، وكان يستقبل الزوار الأجانب بالمجاملة والترحيب إذا سمحت حالته الصحية والمزاجية.

أصبحت مصر بشمسها الدافئة وأثارها المبهرة موطن جذب للموسرين والمتقنين من الإنجليز، يقضون فيها شهور الشتاء وقد يكملون الرحلة إلى فلسطين والشام أو إلى الهند إذا كانوا من أصحاب المناصب أو الأعمال، وكثرت فى كتابات المختصين الشكوى من «الشعبية» التى لحقت بموطن الآلهة والفراعين. ذكر برين دافيز الأستاذ بجامعة القاهرة سابقاً فى بحث له عن هنرى صولت القنصل البريطانى الذى تخصص فى استجلاب الآثار المصرية وشحنها إلى بريطانيا بتمويل من كبار القوم من هواة جمع النفائس والآثار أن مصر أضحت تدوسها أقدام الوافدين بالملات، حتى إن الكونت فوربان مدير المتاحف الملكية فى فرنسا شكأ أن رحلته تصعبا فى النيل إلى الأقصر أفسدتها مجاورته لدهبية لورد بلmour بملحقاتها من أطباء ومربيات وإمدادات، وأن تأملاته فى أطلال طيبة المهيبة اضطربت لمراى دادة إنجليزية ترتدى صيديرية وردية وتحمل شمسية شفافة (كانها تسير

في هايد بارك).

جذبت مصر وأثارها عدداً من الفنانين التشكيليين أثار إعجابهم ما عرضه المتحف البريطاني من أثار غنم الإنجليز بعضها من الفرنسيين وفقاً لشروط جلاء الجيش الفرنسي من مصر عام 1081 (أهمها حجر رشيد) وما تولى صولت وغيره من المندوبين شحنه من مصر، كما بهرتهم القاعة المصرية التي افتتحها بلزوني في بيكاديللي، كما بهرت كل من شاهداها من المعاصرين كما يرد في الفصل الثالث من هذا الكتاب. نظم رسام يدعى روبرت هاى «بعثة مصرية» من عدد من الفنانين تعلموا اللغة العربية وارتدوا زى المصريين وتخصصوا في رسم وتسجيل الآثار والمناظر في الصعيد والقاهرة 1826-1838 (انظر تحت اسم Hay, Robert ص 292-294 من الجزء الأول من بيلوجرافيا مصر والسودان من العصور القديمة حتى 1885 وضعها الأمير إبراهيم حلمي Prince Ibrahim Hilmy Bibliography of Egypt & the Sudan....., 1885, 2 vols

إدوارد ولين وكتاب وصف مصر Description of Egypt

لاشك أن كتاب لين الشهير «أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم» (1836) يمثل محطة هامة في تاريخ الكتابة عن مصر في القرن التاسع عشر فلم تكن مجرد رحلات عابرة للترفيه أو التجارة أو السياسة، بل كانت رحلته منذ البداية موجهة للدراسة والاستكشاف وأثمرت في النهاية حصيلة فذة بكل المعايير، كان لين أحد الفنانين الذين شاركوا في أعمال الرسم والتسجيل في الصعيد في مجموعة روبرت هاى، وقد جمعت بينهما فيما بعد صداقة دامت لسنوات العمر.

كان لين في شبابه فناناً في حرفة إخراج الكتب يتدرب على الطباعة بالحفر على النحاس، أغرم بمصر والمصريين وقرأ كل ما أتبع له من رحلات ودراسات عن مصر، وشرع في تعلم اللغة العربية، ثم أصيب بداء الصدر وبعد شفائه شد الرحال إلى مصر فوصل إلى الإسكندرية في سبتمبر 1825، ومكث في مصر 3 سنوات زار فيها الوجه القبلى والنوبة مرتين مصعداً في دهبية في النيل كدأب الرحالة والمسافرين عموماً إلى الصعيد في ذلك الوقت، وكان هدفه تأليف كتاب عن الرحلة يقدم المعلومات محققة عن مصر ونيلها واقتصادها وتجاريتها من واقع دراسته وخبرته المعينة، وكان كتاب وصف مصر الذى صدر بالفرنسية متضمناً أبحاث ودراسات علماء الحملة الفرنسية التى أجروها فى الموقع قد صدرت الأجزاء الأخيرة منه سنة 1828 عن المطبعة الملكية فى باريس مما

أثار اهتمام القراء بالمصريين المعاصرين، ولم يقتصر اهتمامهم على المصريين القدماء، فكثر ذكر سلوك من يتعامل معهم الرحالة من عمال وتجار، كما كثر وصف الملابس والأزياء.

عادل لين إلى إنجلترا في يونيو 1828 وقد حمل معه مادة واقية للنشر: كتاب رحلات من وحى الخبرة والتجربة الذاتية، موثق بالخرائط واللوحات من رسم المؤلف، ومدعم بالمراجع الكلاسيكية المعتمدة بالإضافة إلى مراجع عربية أبرزها خطط المقرئى وعجائب الآثار للجبرتي.

عكف لين على إكمال فصول الكتاب في صيفتها النهائية وقدمه للناسر جون مري الذي عرضه على مستشاره الأديب، فقرأه المستشار ورحب به وإن طلب بعض التعديلات والزيادات فأعاد لين كتابة السفر كاملاً إلا أن الصيغة الثانية ظلت محل استشارة وأخذ وعطاء، وكانت العقبة الكؤود هي ارتفاع التكلفة لطول النص وكثرة عدد اللوحات والرسومات الشارحة. مضت ثلاث سنوات تغيرت فيها ظروف السوق، وبدأت حركة المطالبة بالإصلاح السياسي بتغيير قانون الانتخاب وتوسيع قاعدة الناخبين لتشمل طبقات وطوائف كانت محرومة من حق الانتخاب، وصدر القانون الجديد في النهاية عام 1832 مخيباً لآمال كثير من المطالبين بالإصلاح، كل ذلك غطي على اهتمامات القراء وقيد من حرية الناسر في المغامرة بإصدار كتاب باهظ التكلفة، والأغلب ألا يجتذب أعداد القراء في ظروف سياسية تموج بالاضطراب، بعد أن غاضت سوق الكتب بكتابات الرحالة ومحاولات فك طلاسم اللغة الهيروغليفية، لم ييأس لين من نشر كتابه بما له من أهمية، وإن فشل في أن يجد ثرياً مثقفاً يتولى تمويل النشر، نصحه ناسر حصيف أن يستخلص من مادة الكتاب ما يخص حياة المصريين المعاصرين، وكان قد أفرد لها فصلاً ثلاثة في وصف مصر، حورها لين ووضع مخططاً للكتاب الجديد ووقع عقداً تسلم بمقتضاه مقدم أجره وحمله وعاد إلى مصر في ديسمبر 1833 ليستوفي مادة الكتاب الجديد ويدققه. أقام في القاهرة حتى خريف 1835 حينما أكمل كتابة النص الجديد عن المصريين المحدثين. في لندن استغرقه إعداد وطباعة الألواح والرسومات التفصيلية المصاحبة إلى أواخر 1836 حين صدر كتابه - برعاية وتمويل جمعية نشر المعارف المفيدة - ليشكل علامة في تاريخ الكتابات والدراسات التي نشرت عن مصر في ذروة حكم محمد علي، وقد اختار له عنوان سلوك المصريين المحدثين وعاداتهم مقابل كتاب صديقه جاردنر ولسون عن السلوك والحياة الخاصة لدى قدماء المصريين.

نجح كتاب لين عن المصريين وأصبح مصدراً مهماً للمعرفة بتفاصيل الحياة اليومية فى القاهرة بين طبقات المصريين وليس الممالك أو الأرستقراطية التركية الحاكمة، إلا أن لين ظل على ولائه لمشروعه الأول، وقام فى السنوات التالية بإعداد صيغة منقحة لكتاب وصف مصر يمكن أن نعتبرها الصيغة - بعد وفاته - المعتمدة للكتاب، ظلت فى حوزته (أهدتها أو باعها) أرملته لمكتبة المتحف البريطانى حيث اطلعنا عليها، وكذلك كل من أجرى بحثاً عن لين أو عن كتابات الرحالة، اطلع عليها رشاد رشدى أثناء بعثته فى جامعة ليدز فى أخريات الأربعينيات من القرن العشرين، واطلعت شخصياً عليها فى الخمسينيات أثناء بعثتى فى جامعة لندن، واطلعت عليها فى الستينيات لىلى أحمد مبعوثة من جامعة الأزهر بعد أن أشرت عليها باتخاذ حياة لين وإسهامه الأدبى والعلمى موضوعاً للدكتوراه التى حصلت عليها من جامعة كامبردج، فكانت أول من درس مخطوط الكتاب وأورد فهرسه وفصل محتوياته.

وقد نشرت ما استخلصته من دراستها للدكتوراه فى كتاب عن إدوارد وليام لين : حياته وأعماله، أصدرته دار لونغمان بالتعاون مع دار مكتبة لبنان ١٩٧٨، إلا أنها اتجهت بعد ذلك إلى مجالات للدراسة ألع بريقاً وأكثر رواجاً.

ظل كتاب وصف مصر مخطوطاً ثميناً حبيس المكتبات فى إنجلترا : النسخة الأولى فى مكتبة البودليان باكسفورد والثانية فى مكتبة المتحف الأشمولى باكسفورد والنسخة الثالثة والمعتمدة للنشر التى اطلعنا عليها جميعاً بقسم المحفوظات بالمكتبة البريطانية فى لندن (المتحف البريطانى سابقاً)، حتى تعرض له الأستاذ جاسون تومبسون الأستاذ المشارك حالياً بقسم التاريخ فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ويتمويل ومساندة من عدد من مراكز البحوث والجامعات الأمريكية، وتوفر على دراسته سنوات توجت بصدوره عن دار النشر بالجامعة الأمريكية فى القاهرة سنة ٢٠٠٠، فى ٥٨٥ صفحة من القطع الكبير، محققاً ومزوداً بجميع اللوحات والخرائط التى وضعها له لين وعددها مائة وستون.

يكتشف القارئ منذ بداية مراجعته للكتاب جلد المؤلف وقدرته الفائقة على الملاحظة والدراسة، وسعة اطلاعه وشمول مراجعة، كما تشكل اللوحات والخرائط وثائق مهمة عن تاريخ الآثار والمناطق الأثرية فى مصر.

وصل لين بكتاب الرحلة عن مصر إلى الذروة من حيث الدقة والإجادة فى تصوير بلادنا فى فترة زمنية ذات دلالة قصوى من حيث بداية الانفتاح على الآخر (أوروبا بالذات)، ودخول التكنولوجيا ومكتشفات العلم الحديث فى مشروعات الدولة وتشكيل حياة شعب

عريق من أبناء الفراغة العظام. ومن الواضح من مسيرة الكتاب فى حياة مؤلفه، أن لين فى دأبه على تحقيق الكمال من حيث صدق المعلومات ويقين الفائدة مع اضطراره للاستجابة لطلبات الناشر ومستشاريه فاته تحول السوق، وإن لحق به عندما أصدر كتابه عن المصريين المعاصرين وسلوكهم وعاداتهم فنجح نجاحاً فائقاً، وكان من الواضح أنه يلبى حاجة عند جمهرة القراء، الذين ظلوا على شغفهم بمصر وإن حولوا اهتمامهم وفضولهم إلى سكانها وأهلها. ضمن لين كتابه عن المصريين المحدثين سجلاً مفصلاً لماكل وملبس أهل القاهرة وعاداتهم فى المناسبات الدينية والاجتماعية والأسرية المختلفة، مقرونة برسوم توضيحية لطرز البناء والمفروشات والملابس وأدوات الطعام وطرق طهيه مما يتعلق بمعيشة الناس العاديين، مما لا يخطر على بال أصحابها أن يسجلوه بالتفصيل، كل ذلك فى عصر سابق على التصوير الفوتوغرافى فى تطوره، وما تلا ذلك من مخترعات سهلت التسجيل وقربت البعيد وجعلت المعرفة بصور الآخرين وسلوكهم فى متناول القارئ والمتفرج بغير حاجة للمسافر العابر أو الرحالة المتأنى.

ذهب رشاد رشدى فى دراسته التى بين يديكم إلى أن كتاب لين لعب دوراً مهماً فى تشكيل كتابات الرحالة عن مصر فيما تلاه من عقود؛ إذ وقف حجراً أو أثراً يشهد على اكتمال المعلومات ودقتها، وأطلق سراح الكاتب الذى أتى بعده فلم يعد مكلفاً ولا ملتزماً بشئ فانتثنى على نفسه يرصد مشاعره وانفعالاته، وتلقى الأنا الفردى المتميز للتجربة والانطباع، ينكب بعد عودته على مخطوطه لا ليوثق أو يدقق بل ليثريه بخياله ويصقل تعبيره ويشدبه، وبذا دخل كتاب الرحلة فى مجال الأدب الباقي بصرف النظر عن تغير المناظر وصور الحكم وربما الطبائع والأعراف.

عالج رشدى فى الثلث الأخير من دراسته عدداً وفيراً من كتب الرحلة إلى مصر مازالت تمتع القارئ حتى يومنا هذا، يبرز بينها عدد من الأقلام النسوية سجلت المذكرات والرسائل الشخصية أو دبجت مقالات مفصلة للنشر فى الصحف والمجلات، وقد أدنى تيسير السفر بالبواخر واستتباب الأمن فى ربوع مصر ونزول شركات نقل أجنبية إلى الميدان بخطوط نقل برية ومائية منتظمة إلى زيادة عدد السائحين الأثرياء الذين يقضون الشتاء فى الأقصر والصيف فى فرنسا، وبازدهار الطبقة البورجوازية فى بريطانيا منذ العقود المتوسطة من القرن ١٩ واتخاذ كثير من أبنائها صفة الجنتلمان المثقف الذى يقلد سلوك الأرستقراطية فى السفر والتجوال فى رحلة كبرى يختتم بها مرحلة الشباب ويكتسب

التجارب والخبرات التى تثريه وتصلقه تمهيداً لتحمل المسؤوليات فى الأسرة والمجتمع والأعمال! نظمت شركات البواخر رحلات تجوب موانئ البحر الأبيض المتوسط، ليعايش المسافرون تجربة «الفانت» ويفوزوا بخبرة الشرق الخلاب.

من الطريف والمفيد أن نقارن الفصلين فى مفتتح وصف مصر خصصهما لين لمدينة الإسكندرية عندما هبط إليها فى سبتمبر ١٨٢٥ وتجربة الكاتب وإيم ماكبيس ثاكرى فى الإسكندرية فيما يمكن أن نسميه أول رحلة إعلام سياحى إلى مصر سنة ١٨٤٤ بعد وصف مختصر للرحلة من لندن إلى الإسكندرية على ظهر سفينة شراعية استغرقت شهرين (١٨ يوليو ١٨٢٥ - ١٩ سبتمبر من نفس العام) لا يستغرق وصفها فى مقدمة الكتاب أكثر من صفحة، يصف لين الإسكندرية وضواحيها وآثارها وسكانها فى فصلين قصيرين، أورد على رأس كل فصل النقاط الرئيسة التى يعالجها.

الفصل الأول : الميناء ومدينة الإسكندرية :

المنظر العام لساحل الإسكندرية - الميناء القديم - وصولنا إلى الميناء الجديد - أول زيارة للمدينة - وصف شارع مزدحم - شجار فى مقهى ينتهى نهاية فاجعة - حى الأوروبيين - وصف الميناء الجديد والفنار - وصف المدينة فى اختصار - المناخ - ... إلخ.

وفى الحديث عن منارة الإسكندرية يضمن ما ورد عنها عند المقريزى والسيوطى وغيرهما من الكتاب العرب ويختم الفصل الأول برأيه المتحفظ فى المدينة: «ترجع أهمية الإسكندرية إلى أنها ثغر ومفتاح لمصر إلا أنها لا تشكل مكاناً جذاباً للإقامة، فهى مدينة فقيرة تعسة(!!) فجوها ليس مما يفيد الصحة، ولا تقع العين فيها إلا على البحر والصحراء. وقد مدح القدماء جوها وشرحوا فوائد الصحة فيه، وأوضح المؤرخ القديم سترابون أن جوها صحى شاف لأنها كالجزيرة يحيطها من كل جانب البحر من ناحية وبحيرة مربوط من ناحية أخرى، ويرجح أن فساد جوها فى عصور تالية نتيجة لتحول بحيرة مربوط إلى مستنقع مالح».

يقدم لين فى الفصل الثانى وصفاً لآثار الإسكندرية والمناطق المحيطة بها، ويعرض موضوع حرق مكتبة الإسكندرية وما ورد فى كتابات المؤرخين المسلمين من أخبار تلك الأحداث التى ما زالت محل جدال حتى يومنا هذا، كل ذلك بموضوعية وحياد علمى التزم به الرحالة المستشرق حسب ما تيسر له وتحقق منه، إلا أن تلك الرحلة بعد مرور ما يزيد على عقد من الزمان على تحققها استعصى على كاتبها أن يجد من يخرجها للناس لارتفاع تكلفتها وتغير توجه الناشرين فى إنجلترا بتغير ما يقبل عليها لقراء بعد أن فتح محمد على

الباب فى مصر على مصراعيه كما أسلفنا، ليس فقط للأجانب عابرين أو مقيمين، بل لأصحاب المشروعات والمخترعات الجديدة، مما يسر الرحلة إلى مصر ووضع الأساس لحركة السياحة بغرض المتعة بصرف النظر عن الفائدة، ولكنها وجدت اليوم طريقها إلى النشر بفضل التمويل الجديد، ومن الطريف أن نقارن بين فصلى لين عن مدينة الإسكندرية كما عاينها فى سبتمبر 1825 وعند رحيله عن مصر فى المرة الأولى بعد ثلاث سنوات، بما ورد فى كتاب ولیم ثاكرى فى كتابه عن رحلته (1844).

كانت ترعة المحمودية من أهم فروع شبكة الترعة والقنوات التى شقت فى عهد محمد على، وازدهرت مدينة الإسكندرية بنمو التجارة مع أوروبا وتركزت فى ميناؤها حركة الاستيراد والتصدير بعد أن كانت تشاركها دمياط ورشيد، إذ تربطها ترعة المحمودية بالمراكز التجارية بالدلتا، ومنها تسير المراكب فى النيل حتى القاهرة وإلى أقصى الصعيد جنوباً، زاد عدد الأوروبيين الذين اتخذوا من الإسكندرية موطناً وخاصة من اليونانيين والإيطاليين، حتى بلغ عددهم فى آخر عهد محمد على ستة آلاف ، فأصبحت الإسكندرية عروس البحر الأبيض : مدينة أقرب فى نظر الوافدين إلى مرسيليا أو جنوا منها إلى القاهرة.

وعندما بدأ استخدام البخار فى النقل البحرى بانتهاء العقد الثالث من القرن تضاعلت المسافات وزاد عدد الرحالة الذين يقصدون مصر والشام للفرجة على الآثار والاستجمام بالجو الدافئ شتاءً، وإن ظلت مصر هى المعبر الأمتل للعاملين فى الهند والمستكشفين فى أفريقيا، وكانت شركة بى آند أو (P&O) من أول شركات الملاحة التى نظمت رحلات بالباخرة تعبر مضيق جبل طارق إلى مالطا (وكانت دائماً محطة التموين الرئيسة للبحرية الإنجليزية فى البحر الأبيض المتوسط فى عهد الشراع والفحم والبخار على السواء) ومنها إلى الشرق الخلاب، كانت الباخرة تجوب موانئ الإمبراطورية العثمانية من أثينا إلى أزمير ثم القسطنطينية تتبعها موانئ الشام : بيروت ويافا ثم الإسكندرية فى نهاية المطاف، حيث ترسو الباخرة أياماً تتيح للمسافرين الفرجة ليس فقط على الإسكندرية بل على القاهرة وأهرام الجيزة كذلك، وهى نفس الجولة التى ما زالت شركات السياحة تقدمها حتى اليوم.

كان ولیم ثاكرى أديباً يشغل بالصحافة الأدبية من موقع الجنتلمان، أى أنه ينتمى إلى الطبقة العليا من المثقفين الذين يرتادون نوادى الطبقات الراقية ولا يعتمدون مالياً على دخلهم من الكتابة، فدعاه صديق من أحد النوادى المرموقة إلى أن يصحبه فى رحلة

بالباخرة إلى ذلك الشرق الخلاب على أن تتحمل الشركة نفقات سفره وإن لم يذكر ذلك صراحة، كل ذلك قبل موعد الرحلة بأقل من يومين، وسوف يجوب البحار التي صارعها يولييسيس في الأودسا طوال عشر سنوات، ويعود إلى وطنه وأهله بعد شهرين (ثلاثة في الواقع).

وبطبيعة الحال كتب ثاكري مذكراته عن الرحلة وقدم لها بإهداء الكتاب إلى قبطان الباخرة التي حملتهم جميعاً إلى الإسكندرية، وعادت بهم سالمين سعداء إلا أن ثاكري لم يكن كاتب دعاية، بل كان أديبا يتقن السخرية والمفارقة ولكنها سخرية لطيفة تجذب القارئ ولا تنفره، سمي كتابه عندما نشره فصولاً بعد عودته مباشرة هزليات في رحلة من كورنهييل إلى القاهرة العظمى وكورنهييل اسم شارع في حي المال والأعمال في لندن وهو اسم المجلة التي كان الكاتب يحرقها، وكانت صفة العظمى تطلق على مدينة القاهرة في كتابات الرحالة في القرن الثامن عشر وما تلاه.

قدم ثاكري «لمحة» من الشرق في وصفه لأزمير ثم إستانبول، وكان الكتاب ينشر فصولاً في المجلة فعمل الكاتب على أن يقدم في كل فصل لوحة مكتملة ينتقى لها خاصية تميزها، وتصبح دالة عليها فاختر للإسكندرية عناصر الازدحام واختلاط الجنسيات وغلبة الطابع الأوروبي على كثير من مظاهر الحياة، وكلها عناصر تشجع المسافر وتحرص دعاية شركات السياحة على إبرازها اليوم إذ تدعو زبائنهم إلى مشاهدة بلاد غريبة وغرائبية مع تأكيد الطابع الحديث أى الأوروبي في الخدمات (الفنادق ووسائل النقل) ثم الطعام الذي اعتاده المسافر منذ طفولته، وتوفر من يتحدثون اللغة في كل مكان.

يفتح الكاتب الفصل الرابع عشر الذي يسميه «من يافا إلى الإسكندرية»

«وصلنا إلى مدخل الميناء ولاحت لنا أبراج الإسكندرية ومبانيها ترتفع داكنة أمام الشمس الغابرة عندما سمعنا طلقة مدفع تسرع إلينا عبر المياه الذهبية الهادئة، واتضح لنا للأسف أننا لن نستطيع النزول إلى البر ذلك المساء..

لكن في الصباح الباكر دخلنا الميناء وكان مزدحماً بالمراكب من كل نوع، وقفنا بجانب هياكل ضخمة سوداء: مراكب حربية قديمة من ذات الشراع يرفرف عليها علم أحمر حائل اللون عليه الهلال والنجمة (علم تركيا) ، زوارق يسيرها بحارة في قلنسوات حمراء، - والقبطان وكذلك موجه الدفة يرتدى الطربوش ولحيته كثيفة طويلة - تتحرك سريعاً بين تلك الهياكل القديمة.. أضف إليها أسطولا غفيرا من مراكب بلاد مختلفة يرفرف عليها علم أمريكا أو فرنسا أو بريطانيا، وبواخر سريعة لشركات إنجليزية وفرنسية تندفع داخل

الميناء أو خارجة منه، كانت هناك باخرة أخرى لشركتنا وإلى جانبها بواخر للبasha لا تختلف فى شكلها عن البواخر المسيحية (أى القادمة من أوروبا)، ولكن الحروف التركية المرسومة على المقدمة تبدو غريبة فى عيوننا، وكذلك تلك الحروف العربية بذيلها الطويلة مكتوبة بلون الذهب على عجلة التجديف وكأنها الهيروغليفية لا نفهم منها شيئاً.. وكنت طوال الليلة السابقة أعد نفسى بمساعدة سيجار أدخنه وتأملات فى ضوء القمر على ظهر الباخرة أن استحضر المشاعر التى ستتأبى عندما تطأ قدمى أرض مصر.. لابد أن عمود بومبى (عمود الصواري) يقف هناك كالجيل فى سهل أصفر، تحيط به غابة صغيرة من المسلات فى ارتفاع أشجار النخيل، وصف من تماثيل أبى الهول ساكنة الوجوه تتأمل النيل، وكانت صورة من قصيدة للشاعر تنيسون كشفت عن جوهر مصر فى خيالى هى «وجه ممنون الجبار هادئ» وكنت أعد نفسى لأحلق فى ذلك بعجب الأهرام ورهبة الهيروغليفية، يشبه رصيف الميناء فى الإسكندرية الرصيف فى ميناء بورتسموث مع إضافة عدد من الوجوه السمراء متناثرة فى الزحام، هناك بانعو المشروبات وتجار لوازم المراكب، وحوانيت تبيع زجاجات الجعة وبخارة يتسكعون وعربات حنطور تبحث عن زبائن، وكورس زاقق من الحمارة يصيحون «تركب يا سيد! حمار يا سيد! اسمع سير، سير فى إنجليزية فصيحة، يبدون أية أفكار رومانسية..».

بعد وصف تجربة ركوب الحمار إذ يشعر بالخلج من «النزول» إلى ظهر ذلك الحيوان النحيل ويفاجأ بانطلاقه بسرعة لم يتوقعها، يصف ثاكرى شوارع الإسكندرية :
«البيوت التى تمر بها ليست من طراز شرقى، والشوارع مزدحمة بخليط من السكان : يهود وأرمن وأوروبيين جبابة فى العمل ويونانيين بسرراويلهم الواسعة، وتجار من النوع البدين حليق الذقن المهندم، مثلهم مثل تجار البورصة فى لندن أو باريس فى البدانة والهندام، أما أهل البلد، فيلاحظ الغرب (كما فعل الخليفة فى ألف ليلة وليلة فى قصته مع المتشردين الثلاثة) يلاحظ أن أكثرهم عور بعين واحدة، إنه الرمد الذى يطيح بإبصارهم..
بعد مسيرة خمس أو ست دقائق على ظهر الحمار تصل إلى الحى الأفرنجى والشارع العريض الذى يشبه مرسليليا حيث الفنادق الرئيسة وبيوت التجار وحيث يسكن القناصل ويرفعون أعلامهم، وأقخمها قصر قنصل فرنسا العام، على النقيض من مسكن القنصل الإنجليزى، فهو متواضع يعفى مواطنيه من الصعود للدور الثانى..».

يمضى الكاتب فى وصف فرحة المسافرين بالدخول إلى قنصلية بلادهم حيث ترقد رسائل الأهل فى انتظارهم، فيورد أمثلة لتأثر المسافرين وهم يقرأون أخبار الأهل ليخرجوا

بنتيجة أن السفر يشحذ عواطف المحبين ويشعرنا بأهمية من خلفناهم في الوطن، وقد نجد فرصة لتذكرهم والتفكير فيهم على البعد أكثر مما نجد ونحن مشغولون بأمور العيش بين ظهرانهم، ولعل الكاتب استخدم قدراته الروائية في هذا الفصل ليخرج بالنتيجة الإعلامية المطلوبة وهي التشجيع على السفر والترحال.

يواصل وصف خبراته في الإسكندرية :

«لأن الأماكن التي تثير الاهتمام في الإسكندرية قليلة وزيارتها سهلة، تجولنا في الأسواق (البازارات) وهي تبدو شرقية فعلا أكثر من الحي الأفرنجي بسكانه الانجليز والفرنسيين والإيطاليين وحضارة بابل التي تسود فيه. من وقت لآخر نمر بأحد البيوت الكبيرة مطلية بالجير الأبيض، لا يبدو عليها إتقان صنعة البناء بنوافذ مشربية وزوج الحراس على الباب في أقبح زى خدم رأيت في حياتي، وقد يكون البيت قصر أحد الضباط في بلاط الباشا أو واحد من أبناء الوالى العديدين..»

ذهبنا لزيارة المسلة التي أهداها محمد علي لحكومة إنجلترا، ولم تظهر الحكومة الانجليزية سرعة ملحوظة في قبول الهدية، ترى ذلك العمود الحجري الضخم راقدا على الأرض لا يحفل أحد بقيمته، يتقافز الأطفال حوله ويتمرغون في التراب والأقذار، يمر به عرب وزنوج ومكاريون لا يحفلون بالأثر الضخم في سقطته، مثلهم مثل الحكومة البريطانية التي لا تحفل بتسجيل انتصار حملتها في مصر سنة 1801 (عندما ساعد جيش إنجليزي في إخراج جيوش نابليون من مصر)، وليس من الولاء أن نظهر حماسا للمسلة ما دامت حكومتنا تعامل الموضوع بهذا البرود، وليتهم يقدمون للحكومة المصرية هدية ذلك العمود القبيح القائم في ميدان ترافلجار في لندن، فيرقد العمودان بقبحهما وضخامتهما جنبا إلى جنب هنا في التراب . (هذه المسلة ذكرها لين وغيره وهي المسلة القائمة على ضفة نهر التايمز اليوم)، زرنا عمود بومبي وهو ليس أكبر من النصب التذكاري في تشارنج كروس (لندن)، ولم يقلت هذا العمود الموقر من سوء المعاملة إذ يزوره بحارة السفن من كل جنس حتى أسافل الكوكبي من أهل لندن، وقد تجرأ أحد أولئك البلطجية وكتب بطلاء أسود اسم شركة دارين للورنيش! وغطى بذلك على النقوش التي ذكرها ويلكنسون في كتابه (تاريخ قدماء المصريين).

كان أمتع ما شاهدت في الإسكندرية زنجيا (لعله يقصد أهل النوبة) في قرية من الأكواخ على مشارف الإسكندرية، تزدهم بالوجوه السعيدة من كل سن ونوع طللتها الطبيعة بطلاء أشد سواداً مما عهدنا. كانت الوجوه سعيدة يتسع شداها عن ابتسامة

والأب في لون الأبنوس وشعره المجعد أبيض كصوف الخروف في غنائيات فلوريان الرعوية.

كانوا يرقصون على عزف طبلية وبايجوا صغير (لعله يقصد ربابة) ويغنون معا في كورس نغما غريبا علينا ولكنه واضح الإيقاع ممتع حقا، كانوا يرقصون في دائرة يهرع إليهم المزيد من كل الاتجاهات ينضمون إلى الحلقة ويبادرون بهز رؤوسهم والتلويح بأيديهم اليسرى واللعب بالعصى الرفيعة التي يحملها كل منهم، والجميع يغنون بكل ما أوتوا من قوة..

في ختام الفصل يقول الكاتب : «قمنا بجولة على المقاهى فى المساء، زرنا المقاهى الأوروبية الراقية حيث يقدمون لك المثلجات والجرائد الفرنسية، والمقاهى فى وسط البلد يؤمها اليونانيون والأتراك وعامة الناس، يجلسون على كراسى متعبة، ويشربون القهوة فى لون الطين ويستمعون لجوق تعس من الموسيقيين يداومون العويل بتنويعات من الغناء ساعات، إلا أن الأغاني الطوة التى سمعتها من السود حالت بينى وبين الاستمتاع بتلك الموسيقى البغيضة» هكذا ختم وليام ثاكرى ذلك الفصل القصير عن الإسكندرية لينتقل إلى وصف الرحلة فى ترعة المحمودية ثم فى النيل على مركب لنفس الشركة يجرها رفاص بالبخار.

كانت الإسكندرية مجرد مدخل للرحلة إلى القاهرة وأهرام الجيزة، وبعد قضاء يوم وليلة على ظهر المركب النيلي تلوح الأهرام فى الفجر لعيون المسافرين المتلهفين لرؤية عجيبة من عجائب الدنيا السبعة، وبعد وصف بديع لنور الفجر الوردي ينتشر على الحقول التى ينحسر عنها ماء الفيضان ويخضب صفحة النهر وظهر المركب بالحمرة يختم الفقرة :

«.. كلما ارتفعت الشمس تلاشت الحمرة التى تخضن وجه الصباح وبدت السماء صافية خالية من السحب، والنهر وما يحيطه من مناظر واضحة فى ضوء ساطع، وبعد ساعة أو ساعتين نظرنا أمامنا فرأينا الأهرام. تخيل مشاعري يا صديقي، اثنين كبار وواحد صغير!!» وحديث ثاكرى عن خبرة الأهرام شيق اهتم به الدارسون لكتب الرحلات لأن الكاتب يستخدم فيه نفس التكنيك الذى استخدمه فى وصف تجربته فى الإسكندرية من نزع الأفكار الرومانسية المسبقة عن الشرق وإبراز التناقض الفكاهى فى كثير من الأحيان بين الخيال الرومانسى والتجربة فى الواقع، على أن الكاتب لم يخيب ظن الشركة التى مولت الرحلة، فالكاتب يشهد بطرافة التجربة وعظمة ما حققته شركة الملاحة لزبائننا، لكنه مطبوع بشخصية المؤلف الساخرة المتأملة مما يضيف عليه قيمة أدبية فريدة، ولا يفوت

الكاتب مغزى التغير الجذرى فى سرعة السفر من التقريب بين الشعوب والعقائد، يقول فى صفحة الختام : « بعد أسبوع نزلنا إلى الحجر الصحى بميناء مالطة حيث قضينا ١٧ يوماً، وحتى هذا السجن يكاد أن يكون تجربة لطيفة، راحة واستجمام بعد فرجة وحركة لا تنقطع طوال شهرين، ففي الفترة بين ٢٢ يوليو و٢٧ أكتوبر شاهدنا عدداً من المدن لم يسبق أن زارها مسافر قبلنا فى مثل ذلك الزمن.. ولعل خير وأسعد ما تخلفه الرحلة من ذكريات كانت لساعات الليل على ظهر الباخرة، ترقب النجوم تلمع فى السماء والساعة تدق ساعة بساعة والأفكار معلقة بالأهل والوطن البعيد. وفى مرة سمعت صوت المؤذن عند الشروق يرتفع من منذنة فى القسطنطينية صائحاً : حى على الصلاة، وصوته الحاد يرن فى الهواء الصحو، فرأيت فى نفس الوقت العربى يسجد ويصلى، والكاهن اليهودى ينحنى على كتابه يتعبد لخالق التركى (أى المسلم) واليهودى.. وأرى باخرتنا تعبر البحار فى يوم الأحد ونحن نقيم عليها صلواتنا؛ فالجميع كل على طريقته ينحنون أمام الله يعبدونه فى سمانه وليس فوقه أحد».

وهذا مثال لما أورده مؤلف الكتاب الذى بين يدينا من خروج كتاب الرحلة من دائرة الإعلام إلى دائرة العمل الفنى المطبوع بشخصية الأديب/ الرحالة.

فاطمة موسى

نوفمبر 2001

الفصل الأول

المقدمات

كان عدد الكتب المؤلفة عن مصر باللغة الإنجليزية فى القرن التاسع عشر فى زيادة مطردة عن أى قرنٍ سابقٍ مما يكشف عن اهتمامٍ واسعٍ ومكثفٍ يتخذ أشكالاً متعددة، ونعالج فى الفصول التالية موطن هذا الاهتمام وما طرأ عليه من تحولٍ على مر الزمن ونتائج ذلك فى كل من إنجلترا ومصر.

تم نشر كتب إنجليزية بالمئات تتحدث عن مصر فى القرن التاسع عشر ولم تكن إلا فصلاً من قصة طويلة وجذابة، ألا وهى قصة سحر مصر الذى تملك العقل الإنجليزى قرابة قرن من الزمان، إلا أن هذه القصة لم تستوف حقاها، وهى مثل كل قصة لها بداية ووسط ونهاية، وحتى يتسنى لنا معرفة المصادر التى جمعت خيوط هذه القصة علينا أن نرجع إلى ما قبل طور البداية.

فى السنوات العشرين السابقة على الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨، اهتم بمصر مجموعة صغيرة من الرحالة غير المنتظمين الذين كانوا يمرون بها وفى الغالب الأعم لا يتوقفون عندها، ففى معظم الأحيان لم يقيم أولئك الرحالة بزيارة مصر لأنفسها وإنما مروا بها فى طريقهم إلى الهند كتجار أو جنود أو موظفين فى خدمة شركة الهند الشرقية أو فى طريقهم إلى مجاهل أفريقيا تدفعهم روح الاكتشاف التى نمت مع نهاية القرن الثامن عشر. وهنا يبرز سؤالٌ جدير بالاهتمام: «لماذا لم تكن مصر جذابة بدرجة كافية تستوجب زيارتها فى حد ذاتها؟». يمكننا الإجابة بأن الشرق عموماً لم يكن يلفت الأنظار إليه بعد، ليس بالنسبة لإنجلترا وحدها وإنما بالنسبة للعالم الغربى فى مجمله، تعرف العالم الغربى على الشرق عن طريق ألف ليلة وليلة التى ترجمت مع مطلع القرن الثامن عشر؛ وأدى هذا إلى ظهور مجموعة من الكتابات تتناول الشرق ونطلق عليها الحكاية الشرقية، ومع أن الحكاية الشرقية كمدرسة فى الكتابة انتشرت فى الغرب انتشاراً كبيراً لدرجة أن دكتور جونسون (عميد الكلاسيكية) كتب حكاية شرقية اسمها راسيلاس، لم يكن الشرق ذا جاذبية فى حد ذاته لدى الغرب، فمن الملاحظ أن كتاب الحكاية الشرقية لم يعيروا وصف الشرق فى نفسه اهتماماً كبيراً، فانصب اهتمامهم عليه كوسيلة ينطلقون منها للتعبير عن أفكارهم فى الأخلاق أو الفلسفة أو النقد الاجتماعى الساخر، ولم يجذبهم - والحق يقال -

إلا بعض الحكايات أو الأخلاقيات التي استنبطوها من هذه الحكايات ، وما كان الشرق يوماً إلا وسيلة لهذه الغاية.

نجد نفس الاتجاه عند الرحالة القلائل غير المنتظمين الذين زاروا مصر قبل الحملة الفرنسية في طريقهم إلى الهند أو إلى مجاهل أفريقيا، فمصر بالنسبة لهم لم تكن إلا وسيلة لغاية، ونستنتج ذلك من ملاحظاتهم التي دونوها في كتاباتهم عن مصر.

قلما نجد وصفاً لأرض مصر أو للمصريين في هذه الملاحظات، لأن مصر لم تشغل بال الرحالة من هذه الزاوية بدرجة كبيرة، فمن المحتمل أن الرحالة وجد في مصر مادة للتفلسف فجعلته يستدعى بعض الصور والأحاسيس المرتبطة بالكتاب المقدس أو روائع الأدب الغربي وجعلته يقدم بعض النصائح لزملائه الرحالة عن الطرق التي يمكن أن يسلكوها، لكن مصر لم تشغل انتباهه لنفسها.

ولنضرب لذلك مثلاً انحصار وقع آثار ومعابد مصر القديمة في نفوس رحالة ذلك الوقت في مجموعة من التأملات الأخلاقية تدور في مجملها حول موضوع ملخصه أن كل أمجاد البشر إلى زوال؛ فيكتب أيلز أيرون عند مروره بمصر راجعاً من الهند إلى بريطانيا عندما يرى الآثار أنها «مدرسة يجب على المغرور أن يتعلم فيها التواضع، وعلى الكافر أن يذكر ربه.. فيها سيجد المرء هداية أكبر بكثير عما سيجده في شطحات أو مواعظ رجال الدين»، ويتسق هذا الموقف مع مواقف العديد من رحالة ذلك القرن؛ إذ يتمثل سحر مصر بالنسبة لهم في قدرتها على استحضار أفكار وصور أخلاقية عن الماضي؛ فنجد مسافرة تدعى إلزا فاي تكتب وهي في طريقها إلى الهند عندما ترى الأهرامات :

«... أستطيع أن أتخيل نفسي مواطنة في عالم زال منذ عهد طويل، فمن يستطيع أن ينظر إلى هذه الصروح الضخمة المقامة منذ ما يزيد في ظني على ثلاثة آلاف سنة دون أن يرجع بخياله إلى الماضي ويعيش في تلك الأيام التي بادت وغرقت في النسيان مثل حكاية تحكي» .

إلى جانب هذه التأملات في الطبيعة الزائلة للمجد البشري ولدت مصر في نفوس رحالة تلك الأيام مشاعر دينية وصلت أحياناً إلى درجة النشوة، فقناع القدم الذي كان الرحالة يرون مصر من خلاله ولّد أحياناً سعادة خالصة، ولم يقتصر على ما ذكرنا من تأملات أخلاقية ناتجة عن مقارنة الحاضر بالماضي كتبت إلزا فاي من القاهرة:

«جذبتني المناظر الطبيعية حولي لطرافتها، واختمر لدى هذا الإحساس عندما نظرت إليها على أنها المكان الذي أقام فيه بنو إسرائيل، وتذكرت قصة يوسف وإخوته الجميلة، بل والفريدة عندما جبت الضفاف التي لجأ إليها يعقوب عليه السلام في شيخوخته وشعرت كما لو كنت في حلم، فبدأ وجودي هنا رانعاً جداً».

كان استمتاع الرحالة بالمكان يصل إلى ذروته عندما يضيف حوادث من الكتاب المقدس

على بعض المشاهد حوله، وهكذا كتب فرانسيس كولنز عام ١٨٠١ أنه «لم يتمتع بشعوره بوجود الله وفضله من قبل بمثل تمتعه بعبادته على رمال مصر».

كان سحر مصر يكمن فى أمور أخرى عند بعض الرحالة فى هذه الفترة وإن لم تكن مصر جذابة فى حد ذاتها، فجاذبيتها بالنسبة لهم كانت تنبع من ارتباطها بأشياء أخرى؛ فمثلاً اهتم جورج بولدون الذى كان يشغل وظيفة القنصل العام البريطانى فى الفترة ما بين ١٧٨٦ - ١٧٩٦، بمصر فقط طالما أنها تخدم مصالح إنجلترا، وكتب فى كتابه ذكريات عن مصر :

«لن أتردد فى الجزم أنه يمكننا أن نسير ألقى سفينة للتجارة سنوياً بين مصر وموانئ إنجلترا، وهل تنسى ما كانت عليه مصر؟ سيدى لقد أدركت ما هى عليه اليوم».

كان هذا الاتجاه نادراً فى تلك الفترة، لكنه لم يكن أندر من موقف جورج وليام براون الذى نزل مصر عام ١٧٩٢ فى طريقه لاستكشاف الحبشة، لكنه لم يستطع أن يتقدم أبعد من دارفور، فعاش فى مصر ست سنوات يدرس خلالها اللغة العربية وعادات المصريين وأخلاقهم؛ وبناء على هذه الدراسة ألف كتاباً فى الرحلة نشر فى لندن عام ١٧٩٩، وذهبت بعض الصحافة المعاصرة آنذاك إلى أن هذا الكتاب «كان يجب مصادرته احتراماً لأذواق البشر» ويرجع هذا إلى أن أسلوب الحياة الشرقية فتن براون لدرجة أنه قارنه بأسلوب الحياة فى الغرب وفضله عليه، وكتاب براون دراسة فى طريقتين للحياة فى العديد من المجالات، وترتكز هذه الدراسة على مبدأ راسخ وهو الإيمان بتلقائية النشاط الإنسانى فى حياة لا يعوقها حشد من الفنون والعلوم، وفوق هذا وذاك الإيمان بأخوة البشر، فيرى براون أن الأغريق والأوربيين عموماً ارتكبوا خطأ فادحاً عندما وصموا الشعوب الشرقية بأنهم «برابرة»: «يثبت البحث الموضوعى أنهم (أى الشعوب الشرقية) يمتلكون مقومات كل ما هو محط إعجاب لدى أى شعب متحضر، وأنهم يتعاملون مع الجرائم مثلاً تتعامل الشعوب الأخرى، وأن عواطفهم وإن تم التعبير عنها بطريقة مختلفة، لها نفس المنبع ونفس المصب (مثلاً عند الشعوب الأخرى)».

من الواضح أن هذا التأويل لأسلوب الحياة الشرقية اعتمد على دراسة براون للمصريين، ومن هنا يمكننا اعتبار هذه الدراسة أولى علامات الاهتمام بمصر فى حد ذاتها: وبالتالي يمكننا أن نقول أن سحر مصر للرحالة الإنجليز بدأ يتخذ شكلاً ملموساً.

الفصل الثانى

القاعة المصرية ورأس ممنون

لا أعرف من قال إن نابليون اكتشف مصر القديمة، ويمكننا أن نقول: إن القائد الفرنسى الكبير اكتشف مصر الحديثة كذلك، فحملته على مصر عام ١٧٩٨ جذبت أنظار الإنجليز بوجه خاص والأوروبيين بوجه عام إلى مصر.

يرى بعض المؤرخين أن الحملة الفرنسية على مصر أدت إلى ازدياد الاهتمام بالشرق، وتجلى ذلك فى قوة الاتجاه الاستشراقى الجديد الذى تزعمه سير وليام جونز، فكثرت النقل المباشر عن اللغات الشرقية وازدادت كتب الرحلات، وبعد أن كان الشرق مجرد وسيلة أو ذريعة لغاية أصبح موضوعاً فى حد ذاته يتم تناوله ودراسته بطريقة عقلانية وعلمية بعيدة عن الخيالات والأوهام.

يتجلى هذا الوضع فى أوضح صوره فى مصر، فلم يعد مجرد الفضول أو حب الطرافة هو الذى يحرك اهتمام الإنجليز بمصر، إذ ازدادت مصر أهمية نتيجة لموقعها الاستراتيجى الذى بدا كما لو كان كشافاً جديداً؛ فنادى بعض الإنجليز بضرورة احتلال مصر، بينما أشبع بعض الكتاب الفضول العام بأكبر قدر ممكن من الكتابات، وكان هناك طلب كبير على أى شىء يتعلق بمصر مثل اليوميات الحربية والرسومات وكتب الرحلات وقصائد عن النيل وانتصار النيل (معركة أبى قير البحرية) والمقالات ورسوم الكاريكاتير والكتب الفرنسية المترجمة الى الانجليزية أو التى يعاد طبعها بالفرنسية، ومن هنا بدأ الانجليز ينظرون إلى مصر نظرة واقعية.

كانت الحملة الفرنسية السبب الرئيس فى اتخاذ الإنجليز هذا الموقف العملى والنفعى من مصر، مما ساعد على تكوين اتصال مباشر أكثر من أى وقت مضى بين إنجلترا ومصر، وأصبح المشهد فى مصر جذاباً ليس لمجرد التدايعات التوراتية أو التاريخية أو الكلاسيكية التى ارتبطت به وإنما لما يشتمل عليه فى الواقع.

يجدر بنا هنا أن نعاين هذا الاتجاه ونفسره من زاوية جديدة، ولن نعالج هنا الاهتمام السياسى بمصر الذى أيقظته الحملة الفرنسية، وسنتعامل مع شىء ملموس نراه رأى العين ألا وهو الآثار التى أدت أبحاث ومنشورات العلماء الذين اصطحبهم نابليون معه إلى تذوق جديد لها.

حصل الإنجليز على عدد كبير من قطع الآثار إما عن طريق الفرنسيين أو بطرقهم الخاصة، ولضخامة عدد هذه الآثار تم إنشاء أول متحف خاص بالآثار المصرية فى لندن وسمى «القاعة المصرية» وتم بناؤها فى بيكاديلى عام ١٨١٢ واستمرت حتى أوائل العشرينات، وكانت هذه القاعة مصرية خالصة بمفردات مأخوذة من الكتاب الذى نشره الكاتب الفرنسى دينون عن مصر عام ١٨٠١، وترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية بعد تسعة أشهر فقط من طبعته الأصلية، وتوافدت أعداد غفيرة من الإنجليز سواء من لندن أم من الأقاليم لزيارة القاعة المصرية، وكانت الجمعيات والأفراد يقتنصون أية فرصة فى الحصول على مومياء أو مسلة مصرية، وأصبح الأسلوب المصرى متبعاً فى أنواع عديدة من فنون الزخرفة فى إنجلترا.

فى تلك الفترة كان المتحف البريطانى يزود مجموعته الرائعة من الآثار المصرية التى شحنها الرحالة والتجار الإنجليز من مصر، وكلما وصلت هذه التحف إلى إنجلترا كلما ازداد افتتاح الإنجليز بمصر؛ فعلى سبيل المثال، كان وصول وتشييد رأس رمسيس الثانى الذى كان يعرف حينذاك بممنون أو أوزيماندياس فى المتحف البريطانى حدثاً كبيراً أثار ضجة كبيرة، فنجد فى حويلات الفنون الجميلة وهى دورية نشر فيها كيتس بعض قصائده القصيرة وصفاً دقيقاً مفصلاً لهذا الحدث، وتدهش هذه الدورية لكم الآثار المصرية الموجودة فى المتحف البريطانى، ولكى ترضى غيرها من الدوريات شغف القراء أمدتهم بمعلومات مستفيضة عن الآثار المصرية وأبدت فيها الرأى بالاعتماد على المصادر الموثوق بها قديمة كانت أم حديثة، بينما تكفلت دوريات أخرى مثل كوارترلى ريفيو بإطلاع القراء أولاً بأول على أحدث الاكتشافات الأثرية فى مصر، ولم يقتصر هذا الاهتمام على الدوريات بل تعداه إلى الكتب، فطبعت كتب كثيرة عن مصر القديمة تتناول الأزياء والفنون وأساليب الحياة والمعمار وكذلك جوانب أخرى من الحياة المصرية القديمة، وكانت أعداد النسخ المطبوعة من هذه الكتب كبيرة جداً لدرجة أن أحد علماء الآثار المعاصرين يقول: إنه بحلول عام ١٨٢٠ تأسست المعرفة بمصر على دعائم جديدة ووطيدة.

امتد سحر مصر للإنجليز إلى مجالات أخرى غير الفن وعلم الآثار، ففى الشعر على سبيل المثال ألهمت رأس رمسيس الثانى شيلى بقصيدة قصيرة مشهورة تسمى أوزيماندياس نشرت عام ١٨١٨:

التقت رحالة من أرض قديم

قال: هناك فى الصحراء ساقان من الحجر الهول قائمتان وحدهما

وقريبا منهما

يرقد على الرمال وجه مكسور غارق لنصفه تشهر

تقطيبته وشفته المتغضنة وملامحه الأمرة فى قسوة باردة

إن من تحت التمثال أدرك جيداً مشاعر الطغاة

فما زالت حية مطبوعة على الحجر الميت
اليد التي صاغتها ساخرة والقلب الذي أوحاها
وعلى قاعدة التمثال نقشت هذه الكلمات :
«أنا أوزيماندياس، ملك الملوك،
انظر إلى صنيعى أيها الجبار واقنط!»
ولا شئ غيره بقى.

فحول أطلال هذا الصنم الضخم
تمتد الرمال مستوية وموحشة إلى ما لا نهاية
فى نفس العام (١٨١٨) تحدى لى هانت كلا من شيلى وكيثس فى كتابة سوناتا عن
النيل وبالفعل كتبها وكسب التحدى، وتصور قصيدته طبيعة المكان أفضل مما فعل صديقه
الأصغر سنا لأنه لم يصف النيل بل وصف آثار مصر القديمة الشامخة فى البرية :

يتدفق عبر مصر القديمة ورمالها الصامته
كفكرة جبارة رصينة تجوس خلال حلم
بأزمنة قديمة وأشياء كما فى تلك الرؤيا
تقوم على جانبيه فى وقفها أبداً
كهوفها وأعمدتها وأهراماتها، وجماعات الرعاة
يجوبون العالم فى بواكير التاريخ والمجد السامق
لسيزوستريس الجبار ولتلك النسمة التى هبت
من الجنوب، الملكة المرحة التى استحوذت على قلوب الجبابرة.
يلى ذلك صمت أكبر : صارم وقوى
كأنه ينبع من عالم فرغ من سكانه
ويثقل الفراغ علينا، وعندئذ نفيق من حلمنا
ونسمع النهر الخصب يجرى
بين القرى ونفكر فى رحلتنا الهادئة
سنكملها لصالح الإنسان.

وبالرغم من أن سوناتا هانت أفضل مما كتبه كيثس وشيلى، فإن قصائد هذين
الأخيرين على دراية تامة بالآثار المصرية، وتتضح هذه الدراية فى قصيدة هايبيريون لكيتس
وقصيدة ألاستور لشيلى وغيرهما من قصائد الشعراء، وفيما يلى مقتطف من ألاستور :

خطوته الهادئة
انصاعت لأفكار رفيعة وقفت
على الأطلال الجلييلة للأيام الغابرة

منف وطيبة وكل ما هو غريب
ومحفور على مسلة مرمية
أو مقبرة من اليشب أو أبو الهول مجذوع الأنف
تخفيه القارة السوداء فى تلالها الصحراوية
تمهل هناك بين أطلال المعابد
والأعمدة الشاهقة وصور البرية
التي تفوق الإنسان حيث يحرس الجن من المرمز
أسرار بروج الفلك النحاس ويعلق الموتى
من البشر أفكارهم الخرساء على الجدران الصماء حولهم،
تسكع متأملًا فى النصب التذكارية
للعالم فى شباب، ظل طوال يوم طويل شديد الحرارة
حملق فى تلك الأشكال الصامتة ولم يكف
إذ ملأ القمر القاعات الغريبة
بظلاله العائمة، بل ثبت بصره فى عجب
إلى أن بزغ المعنى فى عقله الخالى
كالهام غامر، ورأى
السر المثير لمولد الزمن.

اشتد جذب الآثار المصرية للرحالة لدرجة أن عدد الإنجليز الذين زاروا مصر فى
العقدين الأول والثانى من القرن التاسع عشر فاق عددهم طوال النصف الأول من القرن
الثامن عشر، وكانت هناك بالطبع دوافع وعوامل مرتبطة بتلك الفترة شجعت الإنجليز على
الوفود إلى مصر نذكر منها اثنين: أولاً أغلقت حروب نابليون أوروبا فى وجه الرحالة
الإنجليز طوال الأعوام العشرين الأولى من القرن التاسع عشر؛ وأدى هذا إلى اتجاه أولئك
الرحالة إلى السياحة فى حوض البحر الأبيض المتوسط. لذلك أصبحت زيارة مصر امتداد
للسياحة الكبرى (وهى رحلة كان يقوم بها شباب الإنجليز الأثرياء فى القرن الثامن عشر
إلى أهم الدول والمدن الأوروبية كجزء متمم لتعليمهم وتربيتهم (المترجم))، والدافع الثانى
يتمثل فى الوضع السياسى لمصر نفسها، فعندما تولى محمد على مقاليد الحكم فى مصر
١٨٠٥ أصبح الرحالة يشعر بالأمان أكثر من ذى قبل، فلم يعد هناك خوف من أن تصدر
السلطات أملاكه أو أن يهينه المصريون كما كان يحدث فى عصر المماليك.

يتضح من كتابات الرحالة أن الأمان فى مصر بلغ ذروته فى أوائل العشرينات: فيقول
أحدهم عام ١٨١٧: «يمكن أن يذهب الزائر وماله تحت يده من أحد أطراف الدولة إلى
الطرف الآخر دون أن يستولى عليه أحد بالقوة، فالقتل أضحى نادراً».
هناك إذا عدة أسباب وراء وفود أعداد غفيرة من الرحالة الإنجليز إلى مصر: منها

منعهم من نزول أوروبا لفترة طويلة وكذلك موضحة التذوق الجديد للآثار المصرية، إلى جانب الراحة والأمان مما وفرتة مصر للزائر. ونجد في دورية « إكلكتيك ريفيو » عام ١٨٢٤ هذه العبارة: «لقد أسرعت إنجلترا الشابة لمشاهدة مصر القديمة»، فقبل ذلك بأعوام قليلة امتلأت مصر بالزائرين الإنجليز لدرجة أنه كان من المستحيل أن تسير في أى شارع من شوارع لندن دون أن تقابل إنجليزيا عائداً لتوه من شواطئ البحر الأحمر أو جنادل النيل. ماذا كان يفعل أولئك الرحالة في مصر؟ وما أكثر ما جذبهم فيها؟ ومن كانوا؟ أو على الأقل من أشهرهم؟ وما الذى حققوه في مصر؟ هذه أسئلة نأمل الاجابة عليها في الفصول التالية.

الفصل الثالث

طيبة وأبو سمبل

كان سير فودريك هنريك رحالة إنجليزياً أَلَفَ كتاباً رائعاً في الرحلات سماه «ملاحظات أثناء زيارة لمصر» قال فيه عام ١٨١٩: «طيبة بأكملها ملكية خاصة للقناصل الإنجليز والفرنسيين»، وهذا القول الصادق يعبر عن قصة جيدة سنضطلع بحكيها فيما يلي :

«كان هنري سولت قنصلاً عاماً لبريطانيا في القاهرة عام ١٨٠٦، وهو رحالة له باع طويل في تاريخ الرحلات إلى مصر؛ فلقد زار مصر مصطحباً معه الفيكونت فالنشيا ورسم عدة لوحات للقاهرة، ومن هذه اللوحات استمد بانكس بعض الصور في طباعة بانوراما عن القاهرة عرضها فيما بعد في ميدان ليسستر بلندن.

تم تعيين سولت القنصل العام في مصر عام ١٨١٥ وعند وصوله إلى مصر في مارس ١٨١٦ بدأ في تكوين مجموعة لحساب إيرل ماونتنوريس، ومنذ قدومه إلى مصر حتى وفاته عام ١٨٢٧ أبدى سولت اهتماماً كبيراً بالآثار المصرية وكل ما يتعلق بها.

كان سولت قوى الإرادة ، واسع الطموح ودكتاتوراً يحب أن يخضع الناس لإرادته ويستغلهم في تحقيق أهدافه وغاياته، ويذكر معاصروه يوماً هذه الصفات فيه مثمناً نجد في القصيدة التالية التي عثرت عليها في يوميات جيمز بيرتون في قسم المخطوطات بالمتحف البريطاني، كتبها سير وليام سيل وبعثها إلى بيرتون عام ١٨٢٠:

«إذا زرت مصر ولم يكن معك

خطابات لسولت فوجودك على النيل أثم،

فاحرص عندما تقدم أوراق اعتمادك أن تفصح

عما قاله صديقك الحميم كاسليراي (وزير خارجية)

الذي قابلته في نادي الرحالة قبل مجيئك،

بأنه اطمأن عندما تذكر أن سولت الطيب

يحكم القاهرة بدلاً من الفرعون القديم».

كانت أنشطة سولت في مصر كثيرة جداً ولا يمكننا أن نوفيه حقها هنا، لذلك سنكتفي ببعض منها: فمثلاً أثناء إقامته بمصر جمع عدداً كبيراً من الآثار تقدر بحوالي أربعة آلاف جنيه، وكانت لديه أقيم مجموعة من أوراق البردى في عصره، لكنه لم يكن مجرد جامع

للآثار، فلقد كان وراء هذا ولع رومانسى بآثار مصر، ويفصح عن مشاعره فى خطاب أرسله إلى صديقه وكاتب سيرته هولز فى السابع عشر من أكتوبر ١٨١٨ :
« لا يمكنك أن تتصور المتعة التى أجدها فى زيارة ورسم الآثار الجليية لمصر القديمة التى تفخر بها مصر، فعندما يرجع المرء بعقله للوراء إلى عصور بعيدة جداً تطول حياته، ولقد أصبحت على دراية تامة بالسكان القدماء وأشكالهم وعاداتهم، وأظن أنني عندما أعود إلى أوروبا لن أملك إلا أن أتخليها بانتومايم حديثة (لمصر القديمة)».

فتنت مصر سولت لدرجة أنه لم يغادرها بالرغم من أنه صرح مراراً بأنه يود أن يغادرها ، ولم تستبقه فى مصر الثروات ولا الطموحات وإنما افتتان ملك عليه جوانحه ورغبة رومانسية لم تشبع مطلقاً، ويصرح بذلك فى قصيدة نشرها بالإسكندرية عام ١٨٢٤ بعنوان «مصر، قصيدة وصف بقلم رحالة»، وكتب هذه القصيدة لى يصرف عن نفسه الأفكار السوداوية التى اجتاحتها بعد موت زوجته أثناء المخاض ووضع الجنين وكذلك موت أعز أصدقائه (لى) الذى كان يشغل وظيفة القنصل البريطانى بالإسكندرية، وهذه القصيدة أنشودة حب تستدعى الذكريات الجميلة بمصر وتلفت نظر الآخرين إلى مفاتن مصر المحبوبة والتمتع بها، يعبر فيها سولت عن إحساسه بالبهجة والتميز لكونه وسط أطلال مصر القديمة ولقدرته على رسم هذه الأطلال التى يجد فيها الملجأ والأمان :

فى كل وادٍ صغير وكل خوى يخلبان العين

متلما فى وأديك ياطيبة ! بينهما روحى

تنتشى بأحاسيس لا يعرفها العالم

وتقطن الماضى وتفتح مخزن الطبيعة العظيمة

فترول عنى أمراض الحياة الأسيقة.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أعظم إنجاز لسولت فى مصر ألا وهو نقل رأس ممنون من طيبة إلى الإسكندرية عام ١٨١٦ ومنها نقلت إلى المتحف البريطانى فى لندن، وهنا تظهر على مسرح الأحداث شخصية جيوفانى بابتستا بلزوني الذى كلفه سولت بهذه المهمة فأداها على أكمل وجه، وصل بلزوني إلى مصر عام ١٨١٥ لى يقيم آلة تعمل بالماء بناء على طلب محمد على، لكنه لم ينجح فى هذه المهمة، فأعطاه الرحالة السويسرى جون لويس بيركهارت خطاب توصية لسولت. وعندما وفق بلزوني فى مسعاه شرع فى التنقيب الذى استمر أربعة أعوام، وتجول فى مصر مع زوجته الإنجليزية وصى أيرلندى اصطحابه معهما من إنجلترا، وسجل بلزوني قصة حياته فى مصر وكذلك مغامراته وأبحاثه وصراعاته فى كتاب بعنوان «حكاية الاكتشافات الحديثة فى مصر والنوبة»، نشر فى لندن عام ١٨٢٠، وحظى هذا الكتاب باهتمام القراء لدرجة أنه طبع ثلاث مرات قبل عام ١٨٢٢، وأعيدت طباعته فى بروكسل ببليكا عام ١٨٢٥، إن اكتشافات بلزوني وإنجازاته فى فتح

الهرم الثانى بالجيزة ومعبد أبى سمبل جعلته تواقاً إلى الشهرة والاعتراف به كخبير فى الآثار، لكنه لم يكن خبيراً فى الآثار، فبالرغم من إعجابه بالآثار لم يحترمها أو يحترم بنائها، فعلى سبيل المثال، عندما كان وقوده ينفد، كان يجمع عظام وبقايا المومياوات ويشعل فيها النار. وكانت أبحاثه سعياً دؤوباً وراء السلطة والشهرة، وكان تنقيبه عن الآثار يفتقد الدافع والمنهج العلمى كما يتضح من كتابه، ومع ذلك كان لهذا الكتاب الفضل فى إظهار الصراع المحتدم بينه وبين السيد دروفتى، القنصل الفرنسى الذى انضم إليه فيها بعد كونت فوربان، وفيما يلى أحد جوانب الصراع الدائم بين بلزونى وخصومه:

«عندما نجحت فى فتح الهرم طلب منى كونت فوربان بطريقة تهكمية أن أرسل له خريطة، واعتقدت أن أفضل طريقة للتأثر منه أن أرسل له الخريطة التى يتمناها، وبالفعل أرسلتها له بمجرد أن فتحت الهرم بعد رحيله بأيام قليلة، والغريب أن الكونت النبيل أعلن عندما وصل إلى فرنسا أنه نجح فى دخول الهرم الثانى بالجيزة وأحضر خريطة إلى فرنسا».

لم يقتصر سحر الآثار المصرية على بلزونى وسولت، إذ شهد أول عقدين من القرن التاسع عشر حشداً من الرحالة الإنجليز الذين وفدوا إلى مصر ليشاهدوا آثارها ويصفوها وينقبوا عنها، فكانت زيارة مصر امتداداً لرحلة السياحة الكبرى؛ ومن هنا زار مصر رجال على كل شائكة ولون من ضباط فى جيش الهند ليقضوا إجازاتهم فيها، ورجال بحرية متقاعدون ومعلمون فى صحبة النبلاء ومغامرون وشباب أثرياء وصحفيون ودبلوماسيون وأعضاء برلمان، وطبع فى الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٨٢٠ ما يربو على ٢٥ كتاباً من أدب الرحلات عن مصر، ومعظم هذه الكتب يركز فقط على الآثار، كان الرحالة فى القرن الثامن عشر لا يعتبرون أن بهذه الآثار حياة، فهى مجرد شاهدة على العجائب المعمارية للعالم القديم، لكن هذه النظرة تغيرت فى القرن التاسع عشر، فروح البحث أضفت على هذه الآثار الحياة، فأصبحت رمزاً لحضارة كاملة ولجد ولقى، كانت النزعة الرومانسية التى انتعشت فى ذلك الوقت تدفع الرحالة للمجئء إلى مصر ليشاهدوا حضارة مصر القديمة ويستمتعوا بسحرها النابع من قدمها وغموضها ولم يكونوا مجرد خبراء آثار، بل كانوا حجاجاً يحجون إلى مصر مما أكسب رحلاتهم مذاقاً فريداً، وكلهم يتقاسمون هذا الشعور حتى أكثرهم عملية أمثال جيمس سيلك بكنجهام الذى كان صديقاً لمحمد على ومستشاره فى خطط عديدة منها خطة إرسال عدد من الشباب المصريين ليتلقوا تعليمهم فى إنجلترا. ويقول بكنجهام عام ١٨١٤:

«عندما خدمت نيراننا وجلست أستريح للحظات على الأطلال، بدت لى فترة البحث كما لو كانت حلماء واضح الملامح، ووجدت صعوبة فى الاقتناع بأننى رأيت هذه الأشياء الجليلة التى انطبعت فى ذاكرتى، وكان خيالى يرتفع فى صور الأشكال الرائعة التى رأيتها، ولو لم يكن معى رفيق يتحقق مما أرى

لقلت أنه وهم، مع أنه حقيقة ناصعة».

حدثنا باستفاضة عن سحر الآثار المصرية على الرحالة الإنجليز في العقدين الأول والثاني من القرن التاسع عشر، لكن ما الذى حدث بعد عام ١٨٢٠؟ وهل استمرت الآثار فى جذب الرحالة؟ أم انتقل سحر مصر إلى موضوع آخر ؟ هذا ما سنتناوله فى الفصول التالية .

الفصل الرابع

الدارسون الفنانون

بدأ هذا الوضع يتغير مع بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر، فتغيرت نظرة الرحالة إلى الآثار، بالرغم من أنهم لم ينقطعوا عن المجيء إلى مصر لزيارتها، ومن مظاهر هذا التغير أنهم تخلوا عن الكتابة عن الآثار، ومن الصعب تحديد ما إذا كان السبب في ذلك هو العدد الهائل من الكتب التي نشرت عن الآثار أو أن اهتمام الرحالة كان قد انصرف إلى جوانب أخرى من مصر؟ ، ومن المؤكد أن هذا الاهتمام بدراسة الآثار دراسة جادة اتخذ أبعاداً جديدة، وأصبح قاصراً على فئة من الرحالة ذوي مؤهلات تساعد على وصف هذه الآثار وتفسيرها والتوصل من هذا إلى صورة عن مصر تجعلهم يفهمون الحضارة التي خلفت هذه الآثار. كان هذا ما يفرضه منطق العصر آنذاك، فلقد تم معرفة آثار مصر القديمة بالفعل وتبقى أن يتم استخدام هذه المعرفة وسيلة للوصول إلى صورة كاملة عن العالم الذي ظهرت فيه هذه الآثار، وأضفت النزعة الرومانسية المنتعشة آنذاك على هذه الصورة جاذبية فريدة نتيجة لبعدها وغموضها، كما أن التقدم في مجال البحث الأثري ساهم في رسم هذه الصورة خاصة بعد أن نجح طوماس يونج وشمبليون في الكشف عن أبجدية اللغة الهيروغليفية من حجر رشيد؛ وبالتالي أصبح البحث عن هذه الصورة أو بالأحرى عن تفسير مناسب لما تمثله هذه الآثار موضوعاً أقبل عليه الباحثون الأكفاء بحماس كبير. ولم يكن هؤلاء الباحثون مجرد رحالة، بل كانوا خبراء أتوا إلى مصر بدافع سبر غور الآثار وتفسيرها وفهمها، وليس بدافع الفضول لرؤيتها أو التنقيب عنها مثل من سبقهم من الرحالة. وأقاموا في مصر يدرسون الآثار دراسة جادة، وفي أثناء دراساتهم رسموا الأشكال المائتة على الآثار إن لم يرسموا الآثار نفسها، فلقد كان معظمهم رسامين وفنانين، وبالرغم من دراستهم الطويلة، لم يستعجلوا بالنشر مثل الرحالة الذين كانوا «يقومون بجولة فيولفون كتاباً»، على حد تعبير كاتب معاصر لهم، فنجد أقلية قليلة منهم اهتموا بنشر ماتوصلوا إليه. ولا يعنى هذا أنهم لم يقدموا إسهامات كبيرة في مجال البحث الأثري، فلقد تركوا لنا بيانات دقيقة عن موضوعات كان من الممكن أن تمحي تماماً أو تتغير تغيراً جذرياً.

يعتبر روبيرت هاى أشهر هؤلاء الدارسين الفنانين، كان هاى منظم الحملة المصرية

التي مارست نشاطها في الفترة ما بين ١٨٢٦ - ١٨٢٨، وضمت فنانين ودارسين مشهورين مثل ف. أرانديل وجوزيف بونومي وجميس هاليبيرتون و ف. كاثروود وتشارلز ليفر، ولم يكن مجيء هؤلاء الفنانين إلى مصر مجرد الفضول، وإنما جاءوا ليستقروا فيها لبعض الوقت حتى يتسنى لهم مواصلة أبحاثهم، ونهجوا الأسلوب الشرقي في حياتهم وتعلموا اللغة العربية وأتقنوها، وأطلقوا اللحي، ومعظمهم اتخذ له مسكناً في طيبة وآخر في القاهرة حيث كانوا يستقبلون أصدقاءهم من القاهرة أو من حوض البحر الأبيض المتوسط ويقيمون لهم حفلات موسيقى تركية، ومن اللافت للنظر أنهم كانوا يرفضون استقبال الإنجليز الذين يرتدون الزي الأوروبي، ربما لينالوا رضى السلطات التركية في ذلك الوقت، وكذلك كانوا يفضلون السكنى بالأحياء الشعبية ويختلطون بعمامة الناس، وفي طيبة اختار هاى مقبرة مصرية قديمة ليسكن فيها هو وزوجته ومعظم أعضاء حملته، وزودها بأرفف للكتب وكتب وأوانى للماء، وكان يدعو زواره للجلوس على مائدته «ومناقشة العديد من الموضوعات الحديثة وشرب الخمر المصنوع في ماديرا وفرنسا»، ويقول أحد الرحالة المعاصرين :

«لم يشهد موطن الموتى أبهج من هذه الجلسات، وكنا مغرمين بالفنون، وكرسنا أنفسنا للبحوث الأثرية لدرجة أننا ضحينا بأوروبا ومباهجها لبعض الوقت لنجرى أبحاثنا في هذه الأرض البعيدة، ولم تقتر أحاديثنا أبداً، فمن أسعد فترات حياتي تلك الأمسيات التي قضيتها في مقبرة طيبة».

لم تطبع الأبحاث التي قام بها هاى وأعضاء حملته لعقد من الزمن، باستثناء رسومات هاى للقاهرة، وهذه الأبحاث عبارة عن رسومات ويوميات تقع في حوالى مائتى مجلد محفوظة في قسم المخطوطات في المتحف البريطاني بلندن، والعديد من رسوماتهم متناثرة في مطبوعات علماء المصريين آنذاك، وهناك بعض اليوميات كان يمتلكها أفراد بعينهم مثل السيدة كوسونز من عائلة دتشامتون في ولتون بإنجلترا، التي تكرمت على كاتب هذه السطور وأعارته يوميات جوزيف بونومي.

ومن الدارسين الفنانين ذوى النشاط المتميز سير جون جاردنر ويلكنسون الذى جاء إلى مصر عام ١٨٢١ وأقام بها اثني عشر عاماً يدرس فيها اللغتين القبطية والعربية ويرسم الآثار وينقب عنها ويستكشفها، وقارن ما قاله الكتاب القدامى عن مصر بما توصل إليه هو وزملاؤه من نتائج ، كما أنه انهك انهماكاً عارماً في فهم مصر القديمة. ونشر أول كتاب له بعنوان «طوبغرافيا طيبة ومسح عام لمصر» عام ١٨٢٣، ويشتمل هذا الكتاب على المبادئ الأساسية التي بلورها فيما بعد في أشهر كتبه «أخلاق وعادات المصريين القدماء»، والكتاب الأخير ينم عن موهبة فذة ودراية متأنية بمصر وعن مقدرة بحثية هائلة، وهو خلاصة حركة كاملة حاولت إعادة بناء حضارة مصر القديمة التي حيرت عقول أوروبا ببعدها وغموضها. وموضوع هذا الكتاب مر عليه شميليون مرور الكرام دون أن يتعمق فيه

وتناوله روزليني بقدر من العمق، لكن هذا لا ينتقص من قدر ويلكنسون، فهو مفكر عصامي نو أسلوب سلس ويركز على الحياة اليومية للمصريين القدماء بدلاً من أن يتناول قضايا الاشتقاق اللغوي وقضايا خلافية أخرى مثلما كان يفعل غيره من الباحثين، كل هذا يجعل كتابه سهل القراءة وجذاباً بالمقارنة بكتب معاصريه، فقد توصل من دراسته للتماثيل والصور المصرية القديمة على جدران المعابد إلى صورة رائعة للحضارة المصرية القديمة بكل تقلباتها وتجلياتها، و«رسم صورة حضارة تبلورت لأول مرة في «أشكال ونسب محددة» على حد تعبير مجلة «إندبيرة ريفيو».

هذا ما كان ينشده العصر في تلك الفترة، ولم يكن الأدب بمنأى عن هذه الموجة كما رأينا في القصائد التي تناولت مصر القديمة والتي نشرت في الدوريات المطبوعة آنذاك، ولم يكن الشعر وحده هو الذي واكب تلك الموجة، فنجد الرواية لها نصيب أيضاً مثلما في رواية «رمسيس» التي طبعت في ثلاث مجلدات عام ١٨٢٤ ووصفت بأنها «أوسع طريق إلى المعرفة الحالية بمصر».

الفصل الخامس

البانوراما المصرية

لقد شهدت نهاية العقد الثانى من القرن التاسع عشر تحولاً فى اهتمامات الرحالة والكتاب الإنجليز بمصر، فبدأوا ينصرفون عن دراسة الآثار إلى جوانب أخرى من سحر مصر مثل المناظر الطبيعية المصرية أو مشاهدة القاهرة أو أخلاق وعادات المصريين، وبدأت هذه الموضوعات، بالإضافة الى موضوعات أخرى قليلة تستحوذ على الاهتمام الذى كانت الآثار تنفرد به من قبل.

لذلك نجد سير فردريك هنريك يصرح عام ١٨١٩ بأنه يهتم بالطبيعة أكثر من اهتمامه بالأعمال الفنية، ويأتى بعد ذلك بثلاث سنوات مويل شيرر ليقول: إن هدفه يتلخص ببساطة فى «وصف ما رآه»، كما أنه يعترف فى مقدمة كتابه «مشاهد وانطباعات من مصر وإيطاليا» أن الكتاب لا يتوجه إلى الدارس ولا العالم ولا الفنان ولا القارئ واسع الاطلاع، وفى عام ١٨٢١ نجد من يقول فى مجلة «إنبيرة ريفيو» فى عدد يعرض مجموعة كتب نشرت عن مصر فى ذلك الوقت: «إن الكتب التى تظهر فى عنوان هذا المقال تدل على ما يخبئه لنا المستقبل فليس بينها كتاب يدعى أنه يبحث فى مجال واحد من مجالات المعرفة، فموضوع هذه الكتب ينحصر فى وصف البلد والأخلاق...».

وبعد ذلك بعام واحد، أى عام ١٨٢٢، يكتب من القاهرة أوجستاس سينجون، وهو رحالة كرس جزءاً كبيراً من حياته لمصر:

«إننى لا أسافر كعالم آثار، فلا الأهرامات ولا المعابد ولا شئ يمكن أن

يصرف انتباهى عن وضع البشر الأحياء حولى، رجالاً كانوا أم نساء».

ما السبب فى هذا التحول فى الاهتمام؟ لا شك أن الآثار ظلت تجذب عدداً كبيراً من زائرى مصر كما هو الحال فى أيامنا هذه، لكنها لم تستحوذ على كل اهتمامهم كما سبق. إذ تم نشر كثير من الوصف والأبحاث التى تتناول الآثار المصرية لدرجة أنه أصبح من قبيل التكرار إضافة أبحاث وأوصاف أخرى، وأمسث هناك حاجة ماسة إلى سبر غور الآثار وربما تأويلها أيضاً، وهذه المهمة لا يقدر عليها إلا من هم مؤهلون لذلك ممن نعتبرهم علماء المصريين الأوائل وكانوا يناصرون علم المصريين فى ذلك الوقت، عندما كانت المعرفة

بالآثار المصرية تتطور تدريجياً، ومع ظهور أولئك الخبراء ضاق مجال الرحالة المتعارف عليه، لكن هذا الضيق أدى إلى توسيع الآفاق، وعندما أصبح الرحالة العادى غير قادر على المنافسة اضطر الى تحويل اهتمامه إلى مجالات أخرى غير الآثار.

مع أننا يمكننا أن نعتبر هذا هو السبب الأساسى وراء التوسع الجديد فى الاهتمامات أو ما أسميه التحول، فمن الإجحاف غض النظر عن عوامل وأسباب أخرى فى ذلك الوقت ساعدت على فتح مجالات جديدة للاهتمام بمصر لدى الرحالة والكتاب الإنجليز.

أول هذه العوامل عامل تاريخى، فلقد أدت الثورة الفرنسية إلى الاهتمام بدراسة الإنسان ومجتمعه، كما أن صعود محمد على وفتوحاته بدأ يدخل الأحوال الاجتماعية لمصر فى دائرة الضوء، وبدأت مصر، فى الواقع، تكتسب موقعاً مهماً من الناحيتين الحربية والسياسية ليس فيما يخص الإمبراطورية العثمانية فحسب بل وأيضاً فى إطار قضية من أصعب قضايا السياسة الأوروبية وأكثرها جاذبية، وهى قضية العلاقات بين روسيا وتركيا، مما أدى الى صعود سلطة وشهرة محمد على، كما ازداد عدد الرحالة الذين يزورون مصر لبحث النظام الجديد والكتابة عنه، وكان هذا شغلهم الشاغل وإن لم يكن شغلهم الوحيد. فأصبح من المعالم البارزة فى أى كتاب رحلات عن مصر أن نجد حواراً مع الباشا حيث إن الرحالة كانوا يرون أن إغفال أعماله أو تعليقه على أحوال رعاياه إجحافاً بحق القارئ.

كما أن خطط إنشاء طريق برى إلى الهند زادت من شهرة مصر بعد عام ١٨٢٠، وفى عام ١٨٢٩ بدأ طوماس واجهورن جهوده وسبق ذلك محاولات لنشر الخطة وجذب الاهتمام بها، ونتيجة لذلك أخذت جوانب كثيرة من مصر تستحوذ على اهتمام من كانوا يرغبون فى زيارتها أو من يقيمون فى بلادهم ويقرأون أو يكتبون عن مصر.

هناك أيضاً عامل نفسى وراء اتساع نظرة الغرب الى مصر، فيفضل الأبحاث العديدة التي كانت تُجرى عنها آنذاك وبالتالي طول مدة الإقامة بها تعمقت المعرفة وأصبحت تجربة تقرب مصر من النفوس، فلم يعد الرحالة يعتبرها مجرد خلفية لتأملاته فى الأخلاق، كما أن الآثار أنضجت معرفته بمصر وأثارت فضوله لأنها أصبحت فى متناوله، كما أنها ولدت الحب كذلك، مما ساعد على توسيع الاهتمامات، فلم يعد الرحالة يزور مصر من أجل المعلومات التي يمكن أن يحصل عليها فى رحلته، وإنما من أجل الرحلة فى حد ذاتها، وبما أنه لم يعد ملتزماً بالعودة إلى بلده بأخبار جديدة عن الآثار، فإنه تجول حيثما شاء فى أى مكان، فالمعرفة ولدت الحرية.

من ناحية أخرى أدت الشهرة التي حظيت بها مصر على نطاق واسع إلى جذب أعداد أكبر من الزوار، فأتى إليها رجال ونساء من كل لون وطبقة، وبما أنهم لم يأتوا لهدف معين، انصرف فضولهم إلى كل شىء، وكثر عدد الزوار الإنجليز لدرجة أن شاهد عيان معاصر كتب عام ١٨٢٤: «إننا ننتظر وصول وجوه أدبية بكر من الجنادل والواحاح كأمر واقع لا محالة، مثلما ننتظر رسائل البريد من هامبورج».

نلاحظ فى كتابات أولئك الرحالة اتجاهاً جديداً يغلب عليه الاهتمام بتقديم صورة لمصر تعكس ما رأوه، فمن الواضح أن الرحالة بدأ يكون فكرة معينة عن مصر وبالتالي أصبحت خبرته بها متجانسة إلى حد كبير، ويتجلى هذا الاتجاه فى وجهة النظر البانورامية التى تبناها معظم الرحالة؛ فابتعدوا عن التحيز والتعميم ومالوا إلى الوصف بدلاً من توصيل المعلومات واعتنوا عناية فائقة بالتفاصيل وتوفير الطابع المحلى، كما أنهم حاولوا وصف الحياة والحقيقة وصفاً صادقاً.

من أبرز الملامح فى هذه البانوراما المصرية، كان أول ما يسترعى الانتباه هو المناظر الطبيعية ، فلأول مرة فى كتب الرحلات عن مصر تؤخذ هذه المناظر فى الحسبان وتوصف بعناية فائقة وتفاصيل دقيقة، فضفاف النيل ونوار القطن والقرى الصغيرة فى الصعيد الغارقة فى الماء أثناء الفيضان وصعود القمر فى سماء الصحراء أو الغروب كل هذا جذب اهتمام الرحالة فوصفوه فى كتاباتهم ووصفوا متعتهم به، فعلى سبيل المثال قول الرحالة جورج أوجستاس سينجون عام ١٨٣٢ إن غروب الشمس فى مصر «يستحق رحلة إلى مصر أكثر من الأهرامات».

أما الرحالة أن كاثرين إلود التى زارت مصر بصحبة زوجها فى طريقهما إلى الهند عام ١٨٢٥ فتقول وهى تبحر فى النيل:

«عندما بدأ ضوء النهار يتحول رويداً رويداً إلى شفق رقيق، انساب الجمال على سطح النهر الواسع تاركاً العقل يسبح فى أحلام اليقظة الناعمة الممتعة، فلقد توحدت المناظر الشرقية بالخيال الأوربي وأخرجنا مشهد سحر خرافياً لا يكاد يحتمل».

أما البانوراما البشرية فبدأت فى جذب اهتمام الرحالة بعد عام ١٨٢٠. يقول جيمز وبستر الذى زار مصر عام ١٨٢٨:

« لو سألتنى أحد عن البلد الذى أمتعنى أكثر من أى بلد آخر، سأقول فى الحال مصر ، ففى مصر أجد مجتمعاً يختلف تماماً عن مجتمعنا: فالحكومة والدين والناس كلها جديدة علينا».

لقد كان هذا الاختلاف بين العالمين مصدر سحر لأعداد غفيرة من الرحالة الذين حاولوا أن يظهروا الطابع المحلى ويحددوا معالمه فى الحكايات القليلة التى حكوها وفى وصفهم المجتمع المصرى.

وكما سبق القول تكشف هذه الأوصاف عن نزعة إنسانية لطيفة بعيدة عن التحيز، تتعاطف مع المصريين وتفهمهم، وفيما يلى على سبيل المثال فقرة من خطاب كتبه د. مادن، جرّاح عاش فى مصر ١٨٢٥ - ١٨٢٧. والخطاب موجه إلى صديقة إنجليزية ومؤرخ بتاريخ ١٨٢٦/١/٢٨، القاهرة :

«لعلك تعتبريننى وقحاً إذ أخذش كبرياء سيدة فى بلد مسيحي بوصف واحدة من هذه «المخلوقات» المصرية كما أكون فى نظرك «سخيلاً جداً» وأنا أمدح جمال مثل هؤلاء النساء «البشعات»، فبالرغم من بدانتتهن، أتجاسر بتأكيد أن الذقن سماوية الزرقة، والأصابع المخضبة والحواجب السوداء تضيف على العديد منهن جمالاً لا يقاوم..».

الفصل السادس

أخلاق وعادات المصريين الحديثين

بدأ الرحالة والكتاب الإنجليز يهتمون بالعنصر البشرى على الساحة المصرية بعد عام ١٨٢٠، وبلغ هذا الاهتمام ذروته على يد روبرت كيرزون وإيوارد وليام لين، وبالرغم من تصادف وجودهما فى مصر فى نفس الوقت، وبالرغم من اشتراكهما فى ملاحظة الرجال والنساء حولهما، فإن وصفهما لما رأيا متباين جداً، فلقد كان لكل منهما طابعه الخاص. كان روبرت كيرزون من طبقة النبلاء وزار مصر والقدس عام ١٨٢٣ بحثاً عن مخطوطات قديمة فى مكتبات الأديرة، وعندما عاد إلى إنجلترا وإلى بيته الريفى القديم حاملاً معه المخطوطات التى جمعها بدأ يسجل المشاهد والانطباعات التى ذكرته بها تلك المخطوطات، فوضع كتاباً ساحراً نشره فى لندن عام ١٨٤٩ بعنوان « زيارات إلى أديرة الليفانت (حوض شرق المتوسط) ». ولقى الكتاب استحساناً كبيراً فور صدوره وطبع ثلاث طبعات عام ١٨٤٩، ثم ظهرت الطبعة الرابعة عام ١٨٦١، والخامسة عام ١٨٦٥، والسادسة عام ١٨٨١ والسابعة عام ١٨٩٧، وتلا ذلك طبعات متعددة، لم يكتب كيرزون كرحالة يدون ملحوظاته بدقة ومهارة فى حينها، ولا كرحالة يحاول أن يستنبط درساً أخلاقياً من ملاحظاته للناس وأخلاقهم، ولا كرحالة يريد أن يثرى معرفتنا بالبلاد التى يزورها؛ بل يكتب بحس فنان يعتبر خبرته بالبلد ذات قيمة، بل وأصبحت هذه الخبرة موضوعاً فى حد ذاتها يدفعه للإبداع، وهكذا كلما تنامت القصة التى يحكيها عن مصر كلما كشفت لنا عن نفسها تدريجياً من خلال الصور التى رسمها كيرزون للأماكن والناس، وكذلك من خلال حكايات وأساطير الحياة المحلية التى يحكيها بمهارة فائقة، وأخيراً من خلال الخبرات الشخصية المتنوعة التى يرويها، ويركز كيرزون طوال الكتاب على أوجه الاختلاف بين المجتمع المصرى ومجتمعه، وبالتالي نجده يلاحظ ما يدور فى المجتمع بحماس كبير محاولاً دوماً أن يمسك بدرجات ألوانه وظلاله ويصورها، وما هو يصف نداءات المؤذنين فى القاهرة :

«يبدأ يوم المسلمين مع غروب الشمس عندما يحين وقت الصلاة الأولى، ثم تحل الصلاة الثانية بعد غروب الشمس بحوالى ساعتين، أما الصلاة الثالثة فموعدها عند الفجر عندما يتردد نداء المؤذنين الجميل من الألف منذنة

بالقاهرة تردداً مؤثراً فى الجو الهادئ الجميل، ولأصوات المؤذنين بالمدينة وقع جميل ومقدس فى نفسى، ففى البداية تستمع إلى صوت أو صوتين يأتى إليك واهناً من بعيد. ثم يرتفع صوت بالقرب منك، وبعد ذلك يعلو النداء من مآذن الجوامع الأخرى، وأخيراً يقع النداء المتناغم على الأذن وقعاً جميلاً من أحد أطراف المدينة إلى الطرف الآخر داعياً المؤمن للصلاة، فى البداية يبدو كما لو كانت هناك جوقة أصوات فى الهواء مثل الأرواح تدعو بعضها البعض لعبادة خالق كل شىء، وعندما يخفت الصوت، يخيم الصمت لبرهة قصيرة ثم تبدأ همهمة المدينة المستيقظة وجلبتها. وأعتقد أن هذا النداء من الإنسان على أخيه الإنسان للصلاة أكثر ملاءمة للشعور الدينى عن صلصلة النواقيس الأوربية وجلجلتها».

عندما نصل إلى كتاب إدوارد وليم لين (١٨٣٦) نجد أن وصفه للمجتمع المصرى يختلف تماماً عن وصف كيرزون، فهو يرسم لنا صورة هذا المجتمع بالاعتماد على التجربة المباشرة وليس على الخيال، وهذه الصور غنية بالتفاصيل لكنها تكاد تخلو من الحيوية وتفتقد الجو الذى يطبعها فى ذهن المتلقى، ومع ذلك، تمثل عالماً موضوعياً هو نتاج يقظة وانتباه عقل فضولى شديد الصدق، يمثل «أكمل صورة كتبت عن حياة شعب»، على حد قول أحد المعلقين، ونتوقف هنا لشرح بعض تفاصيل زيارة لين لمصر:

يقول لين فى مقدمة كتابه «أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم» إن زيارته الأولى لمصر عام ١٨٢٥ كانت لدراسة لغة سكان القاهرة وعاداتهم، التى وصفها بأنها «أكبر مدينة عربية»، ولا يخفى علينا أن لين لم يكن الوحيد الذى جذبته مصر كبلد عربى، فالتصنيف لكتابات الرحالة والكتّاب الإنجليز فى القرن التاسع عشر يلحظ أن السبب الرئيس لافتتانهم بمصر ينبع من أنهم يجدون فيها صورة لألف ليلة وليلة ولا ننسى هنا الاهتمام الكبير الذى حظيت به الدراسات العربية نتيجة لحركة الاستشراق الجديدة والقوية التى بدأها سير وليم جونز فى أخريات القرن الثامن عشر، فلقد نقلت ترجمات كثيرة عن اللغة العربية لدرجة أن شعراء مثل شيللى حاولوا تعلم اللغة العربية ونجحوا فى ذلك إلى حد ما . وبحلول عام ١٨٣١ (أى قبل ظهور كتاب لين بخمس سنوات) كان صندوق الترجمة الشرقية قد طبع ١٤ ترجمة أكثرها عن أعمال عربية، ولين ذاته يقول فى تمهيد كتابه إنه عندما كان يكتب وصفه للمصريين المحدثين الذين يعتبرون «أكثر شعب عربى حديث تحضراً»، على حد قوله، كان أحد أصدقائه وهو السيد فالجانس فرزينل يكتب تاريخ العرب القديم، لكنه فى نفس التمهيد بل فى نفس السطر تقريباً يقول لنا إن صديقاً آخر وهو سير جاردنر وليكنسون مشغول بكتابة وصف لأخلاق المصريين القدماء وعاداتهم، وبالرغم من أن لين درس اللغة العربية فى إنجلترا قبل أن يأتى إلى مصر، فإن هدفه من زيارة مصر لم يختلف عن هدف معظم الرحالة، إذ ساهمت أشياء كثيرة فى جذب الاهتمام إلى

مصر ولا سيما الموقع فى شرق حوض البحر الأبيض المتوسط، وليس أدل على ذلك من العمل الذى أنجزه بعد عودته إلى إنجلترا عام ١٨٢٨، وهو كتاب ضخّم من خمس مجلدات مخطوطة تحتوى على ١٠١ رسماً ممتازاً مع استخدام نوع من آلات التصوير البدائية (كاميرا لوسيدا) وعنوانه «وصف مصر»، ومن يطلّع على هذا الكتاب فى قسم المخطوطات بالمتحف البريطانى يلاحظ على الفور أنه لا يختلف كثيراً عن أوصاف ذلك الوقت لمصر اللهم إلا فى شموله، فهذا الكتاب يتناول موضوعات الآثار وحكومة محمد على والمناظر الجديرة بالمشاهدة فى القاهرة وعادات الناس، مثل أى كتاب رحلات آخر بعد عام ١٨٢٠. رفض الناشرون الكتاب تماماً، ربما لكبر حجمه، وربما لأن المؤلف كان ينقصه «الحس التصويرى» الذى كان يتطلبه العصر آنذاك، ولحسن الحظ كان لين يمتلك ما كان معظم الرّحالة يفتقونه، فلقد كانت لديه عين يقظة وطبيعة نبوية جداً وكذلك الألوات الضرورية للملاحظة مثل معرفته الوثيقة باللغة العربية، وساهمت أشياء كثيرة فى جاذبية هذه الصورة منها أنها كانت مختلفة عن المجتمع فى بريطانيا، إن لم تكن متناقضة تماماً، كما وجدوا فيها انعكاساً جميلاً لألف ليلة وليلة التى كانت قد انتشرت انتشاراً كبيراً لدى العامة والخاصة فى ذلك الوقت، وكان الكتاب يصور الحكم الجديد الذى أسسه محمد على، ومن هنا يمكننا أن نفهم السبب فى أن لين اقتطع الجزء الذى يتناول المصريين المحدثين وقدمه إلى جمعية نشر المعرفة المفيدة ونشره عام ١٨٣٦ بعنوان «وصف أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم» ولأقى نجاحاً كبيراً وفورياً، فلقد أشبع هذا الكتاب حاجة عامة مما لم يقدر عليه أى كتاب آخر من هذا النوع، وفى الحقيقة توج هذا الكتاب حركة كاملة حاولت وصف الحياة المصرية وصفاً خالصاً، ولسنوات طويلة بعد نشره نصح من يكتبون عن مصر القراء بالرجوع إلى هذا الكتاب، واقتبسوا منه كثيراً سواء وثقوا مصدرهم أم لم يوثقوه، ولأن هذا الكتاب قدم صورة مكتملة عن المجتمع المصرى اعترف العديد من الكتاب بأنه لم يترك شيئاً يمكن أن يقال بعده، ونتيجة لذلك أحدث هذا الكتاب، بالإضافة الى عوامل أخرى، تغييراً فى اتجاه الرحالة الإنجليز إزاء مصر .

الفصل السابع

الطريق البرى والمجتمع المصرى

يمثل نشر كتاب لين وصف «أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم» عام ١٨٣٦ مرحلة جديدة فى قصة سحر مصر الذى جذب الرحالة والكتاب الإنجليز، فحتى ذلك الوقت جذبت مصر عدداً من الأثريين مثل ويلكنسون أو الباحثين مثل لين أو المغامرين الأثرياء مثل هينكر، وكان يزورها كذلك مسافرون من موظفى الهند، وأحياناً كانت زيارة مصر امتداداً للسياحة الكبرى عند الأثرياء، ومع ذلك لم تكن مصر مشهورة بالمعنى الدقيق للكلمة قبل عام ١٨٣٥، فمنذ ذلك الوقت تنوع زائرو مصر وازداد عددهم كثيراً عن ذى قبل، ولم يقتصر الأمر على الرحالة الإنجليز وحدهم، فلقد توصل الأستاذ الفرنسى جان مارى كاريه إلى نفس النتيجة فى دراسته الرائعة «الرحالة والكتاب الفرنسيون فى مصر»، فيقول فى هذا الكتاب: إن عدد الرحالة والكتاب الفرنسيين بدأ فى الزيادة بسرعة بعد عام ١٨٣٥ أكثر عن أى فترة سابقة فى تاريخ مصر، ويلاحظ أيضاً أن مصر جذبت مجموعة كبيرة من الكتاب الفرنسيين المشاهير أمثال فلوبيير وغيره فى أواخر الثلاثينات وما بعدها، وهو ما حدث للكتاب الإنجليز، ففي الفترة بين ١٨٢٥ - ١٨٦٠ زار مصر عدة كتاب مثل وليام ميكبيس تاكارى والأنسة هاريت مارتينو وألكندر كينج ليك وإليوت واربرتون ولورد لندسى ورتشارد مونكتون ميلنز، على سبيل المثال لا الحصر، وأصبحت مصر، فى الحقيقة، منتجاً شهيراً يقضى فيه السائحون على اختلافهم إجازاتهم بداية من الصحفيين العاملين عند حكومة محمد على إلى التجار فى مهام عمل والمرضى الباحثين عن العلاج فى داء الصعيد وجفافه، والمسافرين فى خدمة شركة الهند الشرقية والمترفين فى إجازة ودارسى الكتاب المقدس والكتاب والرسامين الباحثين عن مصادر جديدة للإلهام، وفى ذلك الوقت كانت بعض جوانب أرض مصر والرحلة إليها معروفة مثلما يعرف الرجل الإنجليزى العادى الآن أجزاء من سويسرا أو فرنسا، فعلى سبيل المثال يذكر الرحالة يوماً أسواق القاهرة وحمارة الإسكندرية والإبحار فى ترعة المحمودية وفندق الشرق بالأزبكية، وأصبحوا يتحدثون عن جمال جزيرة فيلة والمنظر من القلعة والهواء الصحى فى النوبة، ومع ذلك كان الجميع يعاودون الكتابة عن كل هذه الأشياء لدرجة أن تاكارى الساخر لم يستطع إلا أن يسير فى نفس الاتجاه ويصف شوارع القاهرة وصفاً جاداً.

زادت شهرة مصر زيادة كبيرة مع استخدام البخار فى الملاحة والتسهيلات الكثيرة التى واكبت هذا الحدث المهم، ويرجع الفضل فى هذا إلى طوماس واجهورت الذى قام، قبل أن يغادر مصر عام ١٨٤١، بوضع مراكز بخارية على النيل وترعة الإسكندرية، وأنشأ كذلك خدمة المركبات الإنجليزية وعربات نقل البضائع وخيول لنقل الرحالة عبر الصحراء، فأصبح الطريق بين القاهرة والسويس طريقاً سريعاً لا يخلو أبداً من آثار عجالات المركبات، كما أنه زود هذا الطريق بسبع محطات منها محطتان تقدمان مشروبات روحية أوروبية، وكانت محطات الحمير، وهى نوع من المحفات الخفيفة، متاحة للنساء والأطفال والمرضى، وكان منظر عربات بريد السويس، التى تجرها أربعة خيول وتحمل سيدات يرتدين ملابس أوروبية ومصطحبات كلاب صغيرة، مثيراً للناظرين من أهل البلاد، ويروى أحد الرحالة أنه فى فندق الشرق بالقاهرة أو فى فندق أوروبا بالإسكندرية «يرتدى الضيوف ملابس السهرة فى العشاء وتغادر السيدات الحجرة عندما يدخل النادل زجاجات البورت»، وبعد العشاء كانت تقدم أوبريتا إيطالياً أو كوميديا فرنسية على نفس مسرح الهواة أحياناً، ومن الجدير بالذكر هنا أن تاركارى فى كتابه «مذكرات رحلة من كورن هيل إلى القاهرة الكبرى» يعنون الفصل الخاص بالإسكندرية بقائمة الطعام التى قدمت للمسافرين وكلها أطباق إنجليزية، ويروى أحد الرحالة أن الرحلة كانت «مجرد حفلة للمتعة»، وبالرغم من أن هذا قلل من رومانسية التجربة كما شكى البعض إلا أنه جعلها أكثر راحة.

يقول لورد لندسى عام ١٨٣٦: «مع وجود الفنادق الإنجليزية بالقاهرة والإسكندرية والقصور العائمة الجاهزة للملاحة فى النيل تحت الطلب، لا يوجد ما يمنع السيدات الإنجليزيات وحاشيتهن من المعجبين من أن يقضوا الشتاء فى طيبة مثلاً يقضونه فى باريس وروما».

سهل الأمر كثيراً بعد عام ١٨٣٦، فوجد الرحالة كل أنواع الراحة والتسلية بما فيها حفلات الرقص والحفلات الموسيقية وحتى نوادى إعاره الكتب وغير ذلك الكثير، فعلى سبيل المثال أسس الدكتور والن عام ١٨٣٦ بالقاهرة جمعية باسم الجمعية المصرية، وكان من أعضائها الشرفيين بعض الدارسين المتخصصين فى الشؤون المصرية مثل لين، وويلكنسون ولورد بروود وهاملتون وروسيلينى ولابور ووالدكتور جليدون، ومن بين اهتمامات هذه الجمعية تحديد مواعيد التقاء الرحالة مع بعضهم البعض، كما أنها جمعت المعلومات الخاصة بمصر وسجلتها، بالإضافة الى أنها سهلت البحث بأن أنشأت مكتبة لأعضائها وضيوفها تحتوى على الكتب الرئيسية التى كتبت عن مصر، وكثيراً ما يشير إليها رحالة تلك الفترة الذين كانوا يتقابلون فى مبنى الجمعية أو يقرأون فى المكتبة، كما أسس الدكتور أبوت والرسام الفرنسى م. بريس جمعية أخرى فى القاهرة عام ١٨٤٢ لنشر الأعمال التى تتناول مصر ولتسهيل البحث من خلال إنشاء مكتبة، وربطاً هذه الجمعية بالجمعيات الجادة

فى أوروبا وكذلك بالباحثين على مستوى العالم؛ فاشترك فيها رجال الثقافة البارزون لبعض الوقت، وكان أولهم سير جاردنر ويلكنسون .

بالإضافة إلى التسهيلات المحلية التى وفرتها مصر للرحالة أكثر من ذى قبل، هناك عوامل أخرى ساعدت على جذبهم إلى مصر، من بينها الكتب المشهورة التى نشرت عن مصر مثل كتاب «المشهد الشرقى والمصرى» لهين وكتاب «مصر» لرسل وكتاب «أخلاق المصريين القدماء وعاداتهم» لويلكنسون «أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم» للين، ولقد أثارت هذه الكتب وغيرها الفضول العام ، فيقول طوماس واجهورت فى كتابه «المرشد للطريق البرى إلى الهند من خلال ثلاث طرق إلى مصر»: «إن الرحالة مدعو للتأكد بنفسه من الأشياء التى تعدده بها هذه الكتب، وكذلك كان مدعواً ، على حد قول واجهورن «ليشهد فجر عصر التنوير فى ظل حكومة محمد على»، فى الحقيقة زاد الطريق البرى وأنشطة محمد على الكثيرة من شهرة مصر لدرجة أننا نقرأ أن «من المؤكد أن أى كتاب يرد اسم مصر فى عنوانه سيجد له قراء، وإن كان قليل المزايا». وكان هذا المسلك ناجحاً بدرجة كبيرة حتى أن كتباً لا تحتوى على جديد وبالتالي عديمة التسلية كانت تنشر للتربح حتى ترفع رصيد كنيسة ما أو أن تحيي ذكرى مؤلف راحل.

من الناحية الأخرى ازداد الاهتمام بكل ما يقع شرق حوض البحر المتوسط عما ذى قبل.

أرسل الشاعر بايرون إلى صديقه الشاعر توماس مور خطاباً عام ١٨١٢ يوصيه : «انظر إلى الشرق فهو السياسة الشعرية الوحيدة»، وكان الشرق سياسة فعلاً، لم يتعلق به بايرون ومورو وحدهما بل جيل كامل من شعراء القرن التاسع عشر، وكان هذا الحب للشرق يتمكن من الشعراء أنفسهم مثل تمكثه من قرائهم، وكتبت دورية «إدنبرة ريفيو» عن لورد بايرون عام ١٨١٨ تقول :

«استقى الموضوعات التى يقدمها فى قصيدته الفارس هارولد من اهتمامات الناس الحالية، فالصفة الشعبية تسيطر على مادة القصيدة وأساسها، ولم تنبع رحلاته من دافع ذاتى لشخص يهيم بمفرده فى جولاته منعزلاً عن المجتمع الذى يعيش فيه، فلقد كانت رحلاته خاضعة للحركة العامة للمجتمع، فالإحساس بإيطاليا أو اليونان أو الجو العثمانى لم يطبع على العقل الإنجليزى من خلال قوة تلك العبقرية وإنما كان كامناً لدى الإنجليز من قبل بقوة ونشاط ..»

بعيداً عن الأحداث السياسية التى قربت الشرق إلى العقل الإنجليزى، مما ساعد على الاهتمام بالشرق أن تدفقت طبعات الكتب المرتبطة بالشرق مثل الحكايات الشعرية والأوصاف الشعبية والترجمات المباشرة للنصوص الشرقية، كما أن كتابات بايرون ومورو وساوى وسير وليام جونز وإدوارد وليام لين وأعضاء صندوق الترجمة الشرقية تراكمت

فى ذاك الوقت وتخللت عقل القارئ عموماً وليس أدل على ذلك من الرحالة أنفسهم، فلم تعد معرفة الرحالة مقصورة على «ألف ليلة وليلة»، وإنما امتدت حتى وصلت إلى الشعراء والمؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ونستنتج من بحثهم الدائم عن الطابع الشرقى خلال تلك الفترة أن تصوراتهم المسبقة عن الشرق كانت أحد الدوافع وراء انجذابهم لزيارة مصر، حتى ناكارى لم يستطع أن يخلص نفسه من صور «ألف ليلة وليلة» عندما حاول معارضة هذا الاتجاه معارضة ساخرة، فلقد سيطرت هذه الصور على عقله عندما كان فى مصر ولم يستطع إلا أن يعيد إنتاج كل ما له طابع شرقى وقعت عليه عيناه.

الفصل الثامن

البحث عن الطابع الشرقى

يقول جميس أوجستاس سنجون فى كتابه «إيزيس» (١٨٥٣): «أجمل ما فى المناظر الطبيعية كان الجانب غير المنظور الذى جاء معى من الشمال إلى هنا»، ويمكن أن نجد أصداء لهذا الكلام عند كل من كتب عن مصر فى أواخر ثلاثينات القرن التاسع عشر وما بعدها، فمع تراكم المعرفة بمصر خاصة بعد ظهور كتاب لين «أخلاق المصريين المحشين وعاداتهم»، أصبحت محاولة إضافة معلومات جديدة من خلال وصف الحقيقة الخارجية «تزيّداً، مثل عصر ليمونة معصورة بالفعل»، على حد قول رحالة معاصر، لذلك لم يهدف معظم الرحالة بعد عام ١٨٣٥ إلى دراسة مصر أو وصفها، فلقد تكفل بذلك الرحالة السابقون حيث قاموا بوصف حقيقة خارجية أصبحت فى متناول الجميع ويمكن أن يتخيلها المرء بسهولة لدرجة أن ثاكارى تعجب عند رؤيته الأهرامات لأول مرة من أنه رآها من قبل...».

وبالتالى انصرف رحالة تلك الفترة عن تصوير وجه الحقيقة وبدأوا يسجلون انطباعاتهم الخاصة عن مصر، مما يعتبر نقطة تحول أدت إلى تغير فى الاهتمام إن لم يكن فى الحس والإدراك، ولا يرجع السبب فى هذا إلى أنه من الصعب على أى كاتب، مهما كثرت معلوماته، أن يضيف جديداً إلى مخزون المعرفة المتاحة للقارئ العادى، حيث إن مشاهد مصر اشتهرت لدى القارئ العادى نتيجة للأوصاف الكثيرة التى قدمها له الرحالة السابقون، بل يرجع السبب إلى أن الحياة تدفقت فى هذه المشاهد من خلال تداعيات المعانى التى أسبغت عليها الجهود الاستشرافية الطويلة سواء من الناحية الشعرية أم من الناحية البحثية والدراسية، فأصبح لدى الرحالة ردود فعل عن مصر مثل الحنين والشوق الغامض إلى الليل والقديم والصور الجميلة الغربية «ألف ليلة وليلة» وكذلك لتمثال ممنون وماذن جوامع القاهرة، وصارت هناك نقطة التقاء أو تواصل بين المشهد والرحالة وهذه النقطة وسعت من استجابة الرحالة وساعدته على أن يبحث ويدهش وهو يلحظ انطباعاته ويجمعها فى رؤية خاصة به، ولم يستطع الرحالة إلا أن يسلم نفسه لتداعى المعانى وتصورات المسبقة عن مصر فانعكس هذا التداعى ولونه وشكل رؤية الرحالة، وكان الرحالة يعى بعض هذه الانطباعات المخزونة ولا يعى بعضها، لكنها أثرت عليه وغذت عشقه للطابع

الشرقى، كما أنها تغذت بدورها من خلال البحث عن هذا الطابع.

كانت حالة من الفعل ورد الفعل أصبحت فيها العلاقة بين المشهد والرحالة أكثر شخصية وحميمية عن ذى قبل، وولدت هذه العلاقة الشخصية الجديدة إحساساً بالدهشة لدى الرحالة، ولم يكن هذا الإحساس ناتجاً عن شكل الحقيقة أو مظهرها، وإنما كان نابعاً من الفرق بين عالمين: العالم الذى جاء منه الرحالة والعالم الذى جاء إليه، وامتدت الدهشة إلى أثر العالم الأخير على عقل الرحالة وحساسيته، إذ ساعده هذا العالم على اكتشاف إمكاناته الشخصية وربما التعبير عنها، لذلك لم يعد هناك رحالة على غرار أ.و. لين أو ج. ويلكنسون يجمع العناصر الصغيرة لنظام حياة معين، سواء أكانت هذه الحياة قديمة أم حديثة، ويضعها بجانب بعضها البعض لرسم صورة لمصر، اختفى هذا الأسلوب وأصبح هناك رحالة على شاكلة كينجليك يقوم بالرحلة لكى يقوى عزيمته، يجوب المشهد وحيداً صامتاً فى نشاط يدل على نشاط أمته بأكملها، لكنه يضطرب أحياناً وهو يتلمس طريقه للوصول الى قبس من الحقيقة الداخلية ويميط عنه اللثام، وكذلك أصبح لدينا رحالة على شاكلة واربرتون يجد الإلهام فى هدأة مصر واتساع الوقت بها ومع ذلك يشترق للعمل وضجة الحياة المزدهمة فى الغرب، ويكتشف أثناء ذلك قدرته الكامنة على الوصف ويستخدم الأسلوب الأدبى عند نشر يومياته، ولدينا كذلك رحالة مثل ميلنز يرغب فى مزج أفكاره بالأفكار التى أنتجها العقل الشرقى لأنه يجد فى هذا المزيج الإلهام ومادة واسعة للإبداع، وهناك أيضاً رحالة على شاكلة لورد ليندسى ينغمس فى إحساسه بزوال الحياة وهو يتأمل المشهد، ولدينا أخيراً رحالة على غرار بيل سنجون يبتهج بالحياة وسط شعوب الليفانت فى الإسكندرية أو وسط الفلاحين فى صعيد مصر، ولا نجد عندهم صورة دقيقة تمثل مصر وإنما انطباعاً عنها وتأويلاً لها، وهذا التأويل يحمل سمات شخصية الرحالة وينبع من خياله، ومن هنا نجد بحث الرحالة الدائم عن الطابع الشرقى، وهذا البحث ليس بحثاً عن محلية معينة قابلة للوصف وإنما عن طابع يؤدى إلى الجدة والبعد والقدم، أى باختصار يؤدى إلى ما هو رومانسى، وهذا الطابع متعة فى حد ذاته لا يمكن التوصل إليه بالحواس وإنما بالخيال عن طريق مزج الحقيقة الداخلية بالحقيقة الخارجية.

كان كثير من الرحالة على وعى بهذا، أى باللحظة التى تمس شغاف القلب حين كانت الأشياء حول الرحالة «تميل إلى تجسيد الاستشراق الذى تعود أن يتأمله من خلال الكتب والصور» على حد قول جورج فيش الذى زار مصر عام ١٨٤٢، والحياة التى يحس الرحالة بأنها تدب فى داخله تجلب الفرحة وتضفى نفسها على المشهد وبالتالي تكونه أحياناً أو تعمق أبعاده مثلما نجد فى الفقرة التالية التى يصف فيها فيش انطباعه الأول عن القاهرة:

« كل شئ حولى، التربة الرملية الجافة والمباني العربية ذات المآذن والقباب وأشجار النخيل الموسمية والسموات داكنة الزرقة المنيرة والمائلة نحو الأفق كل هذا يذكرنى بأحلام اليقظة التى كنت أحلم بها فى السنوات الخوالى،

وأثناء ذلك أجد العرب والأتراك والأقباط واليهود والدرأويش بأزيائهم الشرقية المتنوعة يساهمون في إكمال الصورة». هناك أمثلة كثيرة على أثر تداعى المعانى على الواقع الخارجى، ومن أفضل ما يوضح وعى الرحالة بهذا التداعى ما يكتبه جون كنير الذى زار مصر عام ١٨٣٩ عن وجوده بالقاهرة :

«كذلك أحس إحساساً غريباً بأن المشهد ليس جديداً تماماً، فتنعش المباني والناس لدى انطباعاً منسياً كما لو كنت أتذكر حلماً ما، وأستطيع أن أزعم أنني تعرفت على بعض الوجوه وسط حشود الغرباء ذوى اللحي والعمامات من حولي».

لكن بعيداً عن هذا التداعى الذى يسحر العقل، يجد الرحالة فى المشهد الفعلى - الذى يحيطه بهدوء ويعزله عن بقية العالم ويجعله يسبح فى داخله - راحة نادرأ ما يحس بها فى الغرب «من خلال مناطق سحر واسعة الامتداد» ، فيسبح عقله وجسمه فى السكون ويمرحان، ويعبر معظم الرحالة عن هذا الإحساس بالاسترخاء وسعة الوقت الذى حرموا منه فى الغرب ومازال يحيا تحت سماء الشرق، وهذا الإحساس جسدى فى معظم الأحوال، لكنه له أثره على الروح، فالأشكال الغريبة التى لا تحصى تشع الرحالة بالرائع والغامض الموحش. وفيما يلى مقتطف من القصيدة التى كتبها رتشارد مونكتون ميلنر بعنوان «حمل مصر» وهو يبحر فى النيل عام ١٨٤٢ :

«يالها من سعادة فى نسيم الليل البارد أن تنساب بجوار إسنا وإدفو وكوم أمبو وكل منها بدورها متعة وتؤدى إلى مباحج أخرى : الحركة التلقائية - ومع ذلك كافية للوصول إلى صخور أسوان الوردية - فى جدول مصر الرومانسى

عندئذ بعيداً عن غم الفكر أحس بالبريق الهادئ لليالى النوبة، حيث السماء بأوسمتها الجميلة حافلة بالشموس والأقمار والفراغات المضيئة بالبياض وعلى بوابات ضخمة برزت أشكال المساء أشكال مخيفة كما لو كانت تعلق قلوب الناس وبدت الصور المهولة جليلة أمام ناظرى وملأت الوجوه الشغوفة صف العواميد كما لو كانت تنعى دينا منسيا أو معصياً».

لكن لا ينبغي أن نعزو هذا الإحساس بالطمأنينة والسعادة والبهجة الخالصة الذى يبعثه المشهد المصرى فى نفس الرحالة إلى المشهد وحده: فأهم جزء من المناظر الطبيعية هو الجزء غير المنظور الذى جاء مع الرحالة من الشمال، على حد قول سنجون، ونرى هذا واضحاً فيما كتبوا من وصف إذ ندرك أنهم وجدوا الراحة فى الجوانب الشرقية الخالصة من المشهد، فعلى سبيل المثال ، كثيراً ما داعبت الخيمة خيال الرحالة، فوجد فيها غذاء لمشاعره وأفكاره كما أثارت عقل عدد من الرحالة فاثارت مشاعرهم الرومانسية إزاء

المشهد سريع التغير، حيث يكتنفها المجهول الذى يظهر ويختفى دون أن يترك أثراً وراءه
كما لو كان حلمًا، ولخص ميلنر صفات الخيمة فى قصيدة قصيرة :
ما أسهل ما تقوم تلك الخيمة !
كما لو كانت تبرز
تلقائيا من الخضرة أو الرمل،
تفصح عن هدفنا
بل نحن الذين نغرس
هذا السطح، أينما نتجول
ونمتلك مقاماً مريحاً
ونكرم به الآخرين
نصنع الأريكة - نفرد السجاد
ونكوم الحشايا الجاهزة
فليسترح الجميع أيها القلب المتعب، أيتها الرأس المجهدة
من الألم والكبر لحظة
وامزح بأحلامكما
الصحراء الصفراء تومض
ستار الأشعة الخفيف
ثم نطوى الخيمة ويحين الرحيل
تاركين بقعة من الرماد المحروق
علامة وحيدة على من حل
فى ترحاله حديثاً ،
ننطلق بفرحة إلى الأمام أمنين لنجد
بعد الظهر والمساء منزلاً
وقد تركنا خيمتنا ورائنا
لنواجه زبد البحر الشريد .

فى الواقع، بإمعان القراءة فى كتب الرحالة بعد عام ١٨٣٥ يتجلى لنا شغفهم بمصر
فى انشغالهم الدائم بالطابع الشرقى، فلم يعد المشهد غاية فى ذاته، بل صار حافزاً لجمع
الخيوط العامة للحقيقة، لا للأهمية فى ذاتها وإنما للإيحاء بجو معين وهو الانطباع المكثف
جملة وتفصيلاً. فعندما يكتب لورد ليندسى لأمه وهو يبحر فى النيل جنوباً عام ١٨٣٦ لا
ينقل لها صورة ما وإنما إحساسه بالمنظر وتوحده به . فيكتب لها ما تموج به نفسه فى
لحظة عاشها كان فيها سعيداً بما يحيط به من الأشياء الشرقية : «خيمة وأريكة تركية
وقارب عربى وأشجار نخيل والأهرامات» ونلاحظ أنه قلما يصف هذه الأشياء، ونلاحظ

كذلك أنه يركز على مشاعره ، فكان أكثر سعادة من هوراس تحت شجرته، لأن الأشياء التي تحيط به شرقية، تركية كانت أم عربية أم مصرية، يقول في جزء من خطابه :

« ... لقد أدركت شعور هوراس بالطمأنينة القصوى عند استرخائه تحت شجرة المشمش البرى الخضراء بجانب نبع الماء فى كوكريتيليس، لكن هذا لا يساوى شيئاً بالمقارنة بالاضطجاع تحت خيمة على أريكة تركية فى قارب عربى وأنا أبجر فى النيل جنوباً فها هى حياة خالدة الجمال تتناغم فيها القرى وأبراج الحمام والجوامع ومقابر الأولياء وصوامع النسك والمعابد والأهرامات والطرق المشجرة بالسنت الشانك، وأجمل من كل هذا بساتين تليها بساتين من أشجار النخيل التى تميل رؤوسها المكلفة بالسعف بطيئاً مثل الوصيفات الشابات عندما يهبط النوم ويقودهن إلى سرهن الحريرية».

«كل هذا نعسان ينساب بجانبى كما لو كان مشهداً فى حلم فى تلقائية وسلام وصمت».

الفصل التاسع

رومانس وحقائق الرحلات إلى مصر

أبدى سير كيلر كوتش رأياً صائباً عندما كتب في مقدمته لكتاب «إيوتن (من الشرق)» في بداية القرن الحالي :

«ربما تكون هيمنة الإرادة الغربية على الشرق هيمنة مؤقتة... فهي بالتأكيد إرادة زائلة بالمقارنة بما للشرق من سحر على الخيال الغربي، كنجليك يرسم لنا صورة إجمالية فقط للتفاعل بين تلك الهيمنة وهذا السحر في لحظة سعيدة، لكنها صورة متقنة وخلاصة وتتدفق بالحيوية».

فما انشغال الرحالة بالطابع الشرقي إلا أحد مظاهر سحر الشرق المسلط على العقل الغربي، في عام ١٨٤٤ دون ألكسندر وليام كنجليك انطباعاته عن زيارته لشرق حوض البحر الأبيض المتوسط، ونجح في أن يصور بخيال مكثف ما كان غيره من الرحالة يحاولون أن يتتبعوه، ونجح نجاحاً قلما استطاع هؤلاء الرحالة أن يصلوا إليه، فنجد في كتابه «إيوتن» إحساساً بالبهاء والروعة والمغامرة وإحساساً بالخالد والزائل وفوق كل هذا إحساساً بالتناقض الحاد بين الشرق والغرب، وكل هذه الأحاسيس يقدمها لنا بسعادة واقتدار، وعندما نشر الكتاب قال عنه صديقه واربرتون: «يكتب الرحالة عن الشرق، أما كنجليك فيقدم لنا الشرق ذاته»، والقارئ العادي لم يكن في حاجة إلى أن يُعرف بشكل أسواق القاهرة أو الأهرامات مثلاً ، بل أن يشعر بأن هذه الأسواق والأهرامات تنتمي إلى عالم آخر. ونجح هذا الكتاب في أن يوفر للقارئ هذا الإحساس نجاحاً كبيراً، إذ حرص على نقاء الشكل، وأقصد بنقاء الشكل أنه لم يحش كتابه بمعلومات وأوصاف كثيرة مثلما فعل غيره، وإنما كرس قلمه لوصف انطباعاته، إذ أدرك أن الحقيقة الموضوعية لم تعد تهم القارئ لذاتها، ووضع في تمهيده للطبعة الأولى من الكتاب تصويره عن الرحالة الذي يتطلبه العصر، ذلك الذي «يخبرك بالأشياء كما تبدو له وليس كما هي في الحقيقة»، والواقع أنه يتحدث عن نفسه هنا، كما أنه يتحدث في موضع آخر عن عادة هذا الرحالة «في إرجاع العالم الخارجي بأكمله إلى أحاسيسه»، وجسدت شخصية كنجليك هذا النوع من الرحالة تجسداً كاملاً، مما ساعده على نقل ما كان هو وزملاؤه مصممين على الإمساك به، وهذا ما أطلقوا عليه رومانس وحقائق الرحلات الشرقية .

كان الرومانس والحقائق يكملان بعضهما ولا يمكن فصلهما، ويكمن هذا المزيج من الرومانس والحقائق في الإحساس بأن العالم الشرقي ليس مختلفاً عن عالم الرحالة فحسب بل ومناقضاً له أيضاً، وتولد هذا الإحساس عند كنجليك لأن أحاسيسه كانت هي المرجع لكل ما يراه فهو يركز تركيزاً واعياً على ذاتيته، لذلك نستشف في كتابه ذاتاً قوية، وهذه الذات «أشبه ببايرون في الصحراء» عزيز النفس مضطرم الروح يتسلل إلى الشرق مصطحباً معه مجد ورونق إنجلترا في عهده، لا مبال، متغطرساً، كثير الكلام، يشق طريقه يجتاز عقبة تلو أخرى إلى أن ينتصر في النهاية بأعجوبة، يمضي في الصحراء وحيداً بدون مرشد إلى السويس، حتى قطاع الطرق الذين يسطون على صبي عربي مسكين فيما بعد يدعونه يذهب دون أن يضايقه، بل يسرجون له حماراً ليركب عليه، وطوال الكتاب يصور الباشوات والعرب الذين يقابلهم كما لو كانوا أقزاماً بجانبه كعملاق، وعندما يتقشى الطاعون في القاهرة ويبعد كل من يعرفهم أو يحتك بهم ينجو من الطاعون بأعجوبة خاصة وأنه لم يلتزم بأجراءات الوقاية، وفيما يلي ما كتبه عندما كان يعبر الشوارع بحماره وحماره يفسح له الطريق:

«الممر الضيق الذي أفسحه لي زعيق الحمار أتاح لي، وإن بصعوبة، أن أوصل السير قدماً لمسافة طويلة دون أن ألمس أحداً، وكانت محاولاتي لتجنب لمس الناس لعبة أتسلى بها في وحدتي، وإذا مررت بشارع دون أن يلمسني أحد أشعر بالفوز، أما إذا لمسني أحد أشعر بالخسارة، خسارة دو في المقامرة كما يقول الأوروبيون، لكنني سرعان ما أعتبر هذه الخسارة شيئاً تافهاً، فما خسرت إلا تلك اللعبة وبالتأكيد سيحالفني الفوز في المرة القادمة».

هذا الإحساس بالصراع والبطولة الخارقة والمأساة الحقبة ينقله لنا كنجليك من خلال صياغة الجمل وكذلك من خلال منهجه في تناول، وهو منهج يعتمد على الموضوع ونقض الموضوع، فالصحراء الرمضاء تليها خضرة مصر الرطبة، وإحساسه بالحياة المنتصرة الباسلة يقدم وسط مشاهد الكآبة والموت في القاهرة، ومخاطر طريق السويس ومتاعبها تنتهي بنعمة سرير دافئ ونظيف حيث من دواعي البهجة «أن يرقد المرء على بياضات جميلة، يداعب النوم ويستيقظ مرة أخرى لكي يعاود النوم»، هذا العالم مليء بالمتناقضات البينة التي تحفز انتباهنا طول الوقت، وفيه يقدم الكاتب رومانس صيغ بطريقة لم يسبقه إليها رحالة غيره، وهو لا يصور الشرق بوجه عام ومصر بوجه خاص بطريقة رومانسية مباشرة بالرغم من أن كتابه محاولة مستمرة في ذلك السبيل، ويتمثل في أنه أضفى على الشرق صفات دنيوية: فبعد أن يصف ضخامة الأهرامات يقول إن هذه الأهرامات أشياء من هذا العالم بناها رجال «ياكلون البصل لقاء جهودهم»، لكنه يضمّر الرومانس في

أوصافه، فيولد كتابه فينا الإحساس بأن الشرق عالمٌ غريبٌ لا يزوره الرحالة بدافع الملل ولكن لكي يقوى عزيمته، فالشرق يستنهض روح المغامرة لدى الرحالة، وهذه المغامرة نابعة بدورها من الرغبة في الرائع والمجهول.

ترتكز رومانس وحقائق الرحلات الشرقية في معظم كتابات تلك الفترة على هذا التفاعل بين الرحالة والبيئة الجديدة، بين الغرب والشرق المتناقضين دوماً، أو على عادة الرحالة «في إرجاع العالم الخارجي بأسره إلى إحساساته» على حد قول كنجليك كما أسلفنا.

كان سحر مصر يكمن في الرحالة ذاته بقدر ما يكمن في مصر ذاتها، فيقول إليوت واربرتون في كتابه «الهلل والصليب» (١٨٤٥) :

« هل صار المجتمع ثقيلاً على نفسك؟ هل أثار الحب أو الكراهية أو أية عاطفة زائلة أخرى عاصفة على قارب حياتك؟ هل تغلغل القصص العجيبة للعالم القديم في روحك؟ وهل تتشدد تحقيقها؟ أن مجرد الفضول والقلق دفعاك إلى التجول؟ إن كان كذلك، فتعال إلى النيل! ».

كان واربرتون صديقاً لكنجليك، وما كتب الأخير كتابه «إيوتن» إلا ليكون مرشداً لواربرتون في رحلته إلى الشرق، لكن واربرتون كان أكثر إتقاناً وتفصيلاً من صديقه في التعبير عن رومانس وحقائق الرحلات إلى مصر . ومن ذلك وصفه للإبحار في النيل:

« الإبحار في النيل على ضوء القمر له سحرٌ لا يوصف، فكل منظرٍ لطيف وكل صوتٍ ينبض بالموسيقى وكل نسيمٍ يقوح باللباس، أضواء بعيدة تشع بوهن بين مآذن لا تكاد ترى تميز مدينة القاهرة، وتصل أصوات المؤذن بين الفينة والأخرى واهنة إلى الأذن، وقد تكسر حاجز الصمت صرخات طائر بجع مفزوع أو كركرة سمكة ضخمة للحظات. لكن الهدوء الذي يلي ذلك أعمق بكثيرٍ، فتبدو الطبيعة مستغرقة والعالم طيب الرائحة كما لو كنا في حلم حتى لا نكاد نحس بأنفسنا، ولسنا في حاجة إلى النوم لكي نحلم. ».

يؤكد واربرتون في صوره هذا العالم المليء بالأحلام، ففي هذا العالم يفقد المرء هويته ويحس بسعة الوقت والقدم والبعد والغموض، وبحياة خالية من المشاغل تتناقض تناقضاً بيناً مع مشاغل وصراعات الحياة الأوروبية، لكن بالإضافة إلى روح الرومانس يقدم كتاب «الهلل والصليب» نفساً مضطربة تمل من النيل وتشتاق للعودة إلى حياة العمل، بالرغم من أن الكتاب يتغنى بتمهل وهدة المشهد، ونتيجة لهذا الشوق يستحضر الكاتب المشهد الأوروبي دوماً ويقارنه بالمشهد الشرقي بل ويفضله عليه، ويفصح عن إعلاء التفوق الأوروبي مما أصبح خصيصة قومية، وها هو واربرتون يصف سيدة من الحريم :

«أوشمة حريرية غنية بالألوان وناعمة كقوس قزح تلتف حول خصرها بداية من الجبين الأبيض إلى الأطراف جميلة الاستدارة، غارقة لنصفها في الوسائد المنتفخة، وهذا الوضع يوحي بسيمفونية الراحة... الغموض والعزلة

والخطر تحيط بالمرأة فى الحريم ولكن بيتاً إنجليزياً أو جبلاً أسكتلندياً أو
خوياً إنجليزياً أكثر جاذبية هنا من خدر المرأة فى مصر، ونساؤها نوات
القلب النقى والعقل الراجح والقبعة الريفية على الرأس جديرات بأن يغامر
المرء بحياته من أجلهن خيراً من الجمال الشهوانى الملفوف فى الشرق».
نجد فى هذا العرض الرومانسى وحقائق الرحلات الشرقية خيبة أمل تميز كثيراً من
كتابات تلك الفترة، وتتضح أكثر عند ثاكارى فى كتابه «مذكرات رحلة من كورن هيل إلى
القاهرة الكبرى»، فيقول :

«إن رسم المناظر الطبيعية فى الكتب رسم سىء، وتقدم قصيدتا شيلى خير
صورة أعرفها للأهرام ويفوق جمالها الحقيقة بكثير، فيمكن أن يشرع المرء
فى قراءة الكتاب وخياله يستحضر صورة من تلك الكلمات الرائعة لا تشويها
حقائق تافهة أو حقيرة».

لكن خيبة أمل ثاكارى لا تنبع من حقائق الرحلات الشرقية كما عايشها بالرغم من وعيه
ببؤس وانحطاط الناس، وتتضح خيبته فى إدانته لهذه الحقائق أكثر من أى رحالة آخر،
ويشعر المرء أن سهام معارضته الأدبية الساخرة لم تكن موجهة إلى المشهد فى حد ذاته
بقدر توجيهها إلى الذين بالغوا فى قدر المشهد والذين أفسدوه، أى الرحالة الرومانسيون
وكذلك من يقضون إجازاتهم فى مصر والمسافرون إلى الهند، الذين تدفقوا إلى مصر
وبدأوا بالفعل فى تغيير طابعها، كان وعى ثاكارى بالرحالة الرومانسيين واضحاً، فهو
يشير إليهم دائماً ويتعمد السخرية من المواقع والمناظر التى كانوا يفضلونها مثل النيل
والأهرام والمنظر من القلعة وغروب الشمس فى مصر، لكن سهام ثاكارى الأساسية كانت
موجهة إلى السائحين الإنجليز الذين جاءوا إلى مصر، إذ يرى خيبة أمل فى أن يقطع
السائحون كل تلك المسافة ليصلوا إلى «إنجلترا - فى فندق فرنسى يديره رجل إيطالى فى
مدينة القاهرة الكبرى فى أفريقيا» وثاكارى يسخر من زملائه السائحين ومن «تلاش
الإحساس بالرعب عند المزامحة على الطعام»، ومن خريج جامعة أكسفورد المشغول جداً
بفخذ من اللحم البارد، ومن أحد سكان شارع داوننج فى تركيزه على عنقود عنب، لكن ألا
يكن شىء ما خلف هذه السخرية وهذا الاستهزاء؟ ألا يوجد دليل مكتوم على السخط
والغضب وربما اعتراض مستور؟ فى الحقيقة لم يستطع ثاكارى أن ينجى ذاكرته من
تداعى المعانى الذى كان يرتبط بالمشهد، كما أنه عندما حاول أن يسخر من انطباع هذا
المشهد كان متحمساً فى داخله للاحتفاظ به وساخطاً لأن هذا الانطباع كاد يمحو تماماً،
ومن هنا تنبع المفارقة، وعلاوة على ذلك نجده أحياناً فى معارضته الأدبية الساخرة الممتعة
يمسك بهذا الانطباع ويوصله لنا بكل بريقه وحيويته، ومن ذلك وصفه لشوارع القاهرة :

«كيف أصف لك جمال الشوارع! الرونق الخرافى وتنوع المنازل والطرق
المقنطرة والأسقف المعلقة والشرفات والأروقة والالتقاء الجميل للضوء والظل
والضوضاء والضجيج وطيبة الناس والأسواق التى لا تنتهى برونقها الفطرى
! توجد ثروة للرسامين فى القاهرة ومواد فنية لجمعية كاملة منهم، لم أر
مطلقاً مثل هذا التنوع فى العمارة والحياة والصور واللون اللامع والضوء
والظل، فهنا صورة فى كل شارع وفى كل دكان بالسوق».

الفصل العاشر

المرحلة الأخيرة

إن شعور الطبقة المتوسطة بالملل، والتسهيلات الجديدة في السفر بما فيها تحسينات الطريق البرى، إلى جانب البحث عن الطابع الشرقى والشهرة التى بدأت مصر تكتسبها كمنتج لقضاء الإجازات، كل هذه العوامل وبعض العوامل الأخرى أدت إلى مجيء أعداد غفيرة من الرحالة الإنجليز لزيارة مصر فى الخمسينات وما بعدها من القرن التاسع عشر، ولم يضاف هؤلاء الرحالة شيئاً جديداً أو ذا قيمة على المشهد المصرى، مما جعل إسهامهم فى التأويل الأدبى لمصر يكاد لا يذكر، ومع ذلك ينبغى علينا أن ندرسهم كمجموعة رحالة وكتّاب مختلفين عن كل من سبقهم، فلقد بثوا نغمة جديدة فى الكتابة عن مصر، وبرزت هذه النغمة فى معظم الكتابات التى تناولت مصر فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر.

نتجت هذه النغمة الجديدة لما طرأ من فتور البعد الرومانسى فى زيارة مصر، وهذا الفتور نتج بدوره من بعض التغيرات المادية التى استشرت فى البلاد مثل التحسينات فى الطريق البرى أو قناة السويس، لكن هناك جانباً آخر لم تشر إليه: فالتغير حدث داخل الرحالة أنفسهم أكثر منه فى الزيارة أو فى مصر، ويمكننا أن نسميه تغيراً فى الإحساس تولد من تسهيلات المواصلات فى تلك الفترة، فسهولة المواصلات شجعت جموعاً من السائحين على التنقل، كما كانت الكتابات العديدة عن الرحلة بمثابة المرشد لهم وتدلهم على ما يمكن أن يشاهدوه، ويمكننا القول: إن «السائح» كما نعرفه اليوم كان تطوراً طبيعياً للرحالة أو بالأحرى كُتّاب الرحلات، فالانتشار الواسع لهذا النوع من الكتب وكذا اهتمام السائح عموماً بلامح وجوانب معينة من مصر، فيراها ويحس بقيمة الرحلة من خلالها، ومن هنا ينشأ البحث المتعمد عن الأماكن الجديرة بالمشاهدة، وبالتالي التصنع، لأن ما كان فردياً أصبح عاماً، ولأن المنظر من القلعة، على سبيل المثال، أيقظ إحساساً بالجمال أو العظمة لدى الرحالة السابقين ومن المفترض أن يوقظ نفس الأحاسيس لدى كل من يأتى لرؤيتها، وكتب تاركارى معارضة ساخرة لربط أحاسيس معينة بمنظر بعينها، واصفاً غروب الشمس فى مصر بعد أن وقع من على ظهر حماره بعد ظهر أحد الأيام فى القاهرة:

«بعد هذه المغامرة الخطيرة مباشرة غطست الشمس أيضاً في الرمل - ولكن لا لتصعد مرة أخرى مثلما فعلت أنا بسرعة كبيرة - ، وشاهدت هذه الظاهرة اليومية للغروب بمتعة (حيث أنني كنت مشغولاً في تلك الساعة بالعشاء مع صديق قديم)....».

كما أن كنجليك يعترض في تمهيده لكتاب «إيوتن» على ما كتبه رحالة ذلك العصر :
«حكايتي (يقصد إيوتن) ... لا تحفل بتلك الانطباعات التي كانت من المفترض أن تطرأ على أي «عقل سليم»، وإنما بالانطباعات الفعلية والحقيقية....».

صار وصف الرحالة السابقين لمصر «مفروضاً» على السائح في شكل مجموعة من المشاهد والمشاعر حتي قبل أن يجيء إلى مصر، وقيدت حريته واستقلاله لدرجة أنه فقدهما تماماً. وهنا نجد قدراً من الزيف في رغبته في إصدار الأحكام والإدانة دون معرفة كافية أو تمييز وكذلك نتج عنه نفوره من الواقع الخارجي.

عندما جاء الرحالة ليشاهد أجزاء معينة من مصر، لم يستطع أن يراها كما يحلو له ، فبدأ ينظر إلى الواقع الخارجي بقدر كبير من الحياد، فنظر إلى المشهد بموضوعية ولم يلحظ أخلاق الناس وعاداتهم على سبيل المثال، ومن هنا امتلأت كتابات هؤلاء الرحالة بتفاصيل فقيرة وشاحبة خالية من الإمتاع، فعلى سبيل المثال، نجد سائحة تدعى السيدة ديمر التي زارت مصر في عامي ١٨٣٩ - ١٨٤٠ ، تتناول عدداً من المشاهد التي تناولها كنجليك من قبل، لكن الواقع الحي المهم عنده يتوارى عندها ويتحول إلى شيء مبتذل فاقد الحياة، وهناك كذلك ماريان بوستانز التي تطلق على نفسها «صائدة مشاهد»، لكنها سطحية جداً مثل كل أفراد طبقتها الاجتماعية ولا تسلم نفسها للحظة المعاشة، وإنما تحاول، بموضوعية متعجرفة، أن تنقل المشهد بالوان زاهية مبهرجة مما لا يدل على نوق سليم ، فهي تؤكد على عنصر الغريب حتى تنال قبول العامة، تحول عشق الرحالة للطريف على يد السائح متبلد الشعور إلى شغل بما هو مثير وبالتالي لجأ إلى المغالاة في اللغة والأفكار، وأدى هذا التغير إلى انحطاط الطابع الشرقي من الرومانسي إلى الشاذ لأن تداعي المعاني الذي استثار هذا الطابع في نفس الرحالة ضاع عند السائح، وبما أنه عجز عن إدراك الطابع الشرقي أو الإحساس به كما يحلو له، نظر إليه على أنه مجرد صفة من صفات المشهد صفة غامضة عديمة المعنى ومع ذلك يجب السعي ورائها، وتبنى السائح هذا «الاتجاه» مثلما تبني فكرة الرحلة ذاتها، وفيما يلي يصف أحد السائحين كيف أن حي بولاق أيقظ لديه ذكريات «ألف ليلة وليلة» :

«جلس أبو الحسن عند بوابة المدينة ورأيت هارون الرشيد خارجاً في هدوء ومتنكراً في زى تاجر من الموصل... وكان السندباد الحمأل أيضاً مسرعاً إلى السندباد البحار، تحولت وشاهدت شكله يتلاشى في ضوء الشفق، ومع ذلك أشك فيما إذا كان قد وصل إلى بغداد في الميعاد....».

مع مجيء السائح إلى مصر، كانت النتيجة أن تلاشى التأويل الأدبي لمصر عند الرحالة الإنجليز.

يخرج سائحان عن إجماع حشود السائحين الذين ختموا قصة سحر مصر للرحالة والكتاب الإنجليز خلال القرن التاسع عشر، فلا يمكننا أن نصنفهما مع الآخرين لاختلافهما عن معظم من سبقهما وهما بيل سنجون وليدى داف جوردون اللذين زارا مصر فى عامى ١٨٥٠ و١٨٦٢ على الترتيب، وعاش كل منهما فى مصر لفترة تتراوح بين أربع أو ست سنوات، وبالرغم من اختلاف ميولهما، تكاد رؤيتهما تتماثل، فلم يتركا لنا الانطباع الأول مثل الرحالة الآخرين، بل تركا مجموعة متكاملة من الانطباعات، أو بالأحرى تجربة كاملة، قد تكون أقل رومانسية عن تجربة كنجليك أو واربرتون مثلاً، لأنها تتمثل كل أبعاد الواقع وليست مجرد انطباع.

كان بيل سنجون الابن الثانى لجيمس أوجساس سنجون، عاشق مصر الذى أقام بها فى الثلاثينات، جاء ابنه الى مصر فى ١٨٤٨. ونتيجة لارتباطه بالأوروبيين تبنى نفس الاتجاه اللامبالى المتشكك رغماً عنه، ولم يستطع أن ينظر إلى مصر نظرة جادة، لذلك قرر أن يغير «الجو» الذى يعيش فيه، فاتجه للعيش مع الست نظلة وهى سيدة من الإسكندرية عرفها لبعض الوقت، وكتب قصة ساحرة نشرها فى باريس عام ١٨٥٠ بعنوان «إقامة لمدة عامين وسط عائلة سكندرية»، ولا تخلو هذه القصة من الإعجاب بالنفس (الوثر) الذى تحدث عنه كنجليك، إلا أنه لا يشوش رؤيتنا للمشاهد لأنه مجرد جزء منه، كما أن الشخصيات التى رسمها فى هذه القصة مثيرة للاهتمام مثل الست نظلة الأم الحنون، وحنا المتعصب، والست صوفى الزوجة العاشقة، ووردة الحورية ذات العيون السوداء التى أغرمت بالمؤلف، وإسكندر التاجر السكندرى وغيرهم، وهذه الشخصيات التى صورها بيل سنجون بحيوية وكثافة تمثل نماذج بشرية وبالتالى تساعد القصة فى تحقيق هدفها الذى يتمثل على حد قول المؤلف فى «تصوير مرحلة معينة من الأخلاق والعادات الشرقية»، وهذه الشخصيات وقصص أخرى يضفرها المؤلف بعفوية فى نسج العمل تهدف إلى خلق الطابع الشرقى، يصور المؤلف هذا الطابع تصويراً مختلفاً لأنه على دراية بالواقع أكثر بكثير من غيره من الرحالة، ولم يكن السبب فى عشقه لهذا الطابع مجرد طرافته، بل حسن معرفته به أيضاً. فرسم صورته باقتدار وإقناع نتيجة لعمق التجربة ومتعتها، فلا نجد فى هذا التصوير الحذقة والحماس مما يشوب الانطباع الأول عند كثير من كتاب الرحلات.

يظهر نفس الاتجاه فى كتاب آخر له عن مصر بعنوان «حياة القرية فى صعيد مصر موضحة بالصور» (١٨٥٢)، الصور فيه ذات ألوان محلية متنوعة ومتدفقة بالحيوية، تصور حياة الفلاح ومساكنه وعاداته وتقاليده وطقوسه الدينية ومعتقداته ببصيرة ثاقبة وحسن فهم، وترجع جاذبية هذا الكتاب وقيمه إلى أنه أول محاولة جادة للاهتمام بالعامية من أهل مصر، ويشكل مرحلة جديدة فى تطور كتب الرحلات المصرية، إذ يبين تعمق وعى الرحالة

بمصر ورغبته فى التحول إلى مجالات جديدة عند استنفاد المجالات القديمة، ونجد فى هذا الكتاب نفس البحث عن الطابع الشرقى مثلما عند غيره من الرحالة، خاصة وأن سنجون كان مثل والده عاشقاً لمصر مشغولاً يوماً «بالشوق الذى لا يشبع إلى الطرافة»، بيد أن هذه الدراسة لا ترجع إلى مجرد حب الكاتب للطريف، لأنه يقدم المعلومات والشروحات والايضاحات بدافع إنسانى نبيل، ربما يطغى عليه بعض التحيز للفلاح ولكن بدون أى إحساس زائف أو رغبة فى انتهاك الإنسانية بالتمادى فى وهم مؤقت أو تعصب ذى سطوة. رسمت ليدى داف جورديون فى مجموعة خطابات بعثتها من مصر صورة للبلد غنية بالجوانب الإنسانية واتساع الرؤية وعمق الفهم، وفيما يلى ما كتبه جورج مريدث عن هذه السيدة :

«تمثل صورتها الإحساس المتبصر الشامل، ولم تخذع جورديون أبداً بالكتاب الكثيرين، مسلمين كانوا أم مسيحيين، الذين دفعتها حكاياتهم عن الشقاء والظلم إلى أن تقدم خدمات إنسانية للمصريين، ولقد وجد فيها المصريون البعد الإنسانى الذى يعادل الصورة التى يرسمها الكاتب الساخر الضجر، فناصرت ساكنى ضفاف النيل فى زمانها ونظرت إليهم نظرة ود وعطف....».

جاءت داف جورديون إلى مصر عام ١٨٦٢ وظلت بها حتى ماتت عام ١٨٦٩ بسبب داء الصدر الذى جاءت لتستشفى منه فى مناخ مصر الدافئ، وظهر الجزء الأول من كتابها «رسائل من مصر» عام ١٨٦٥، وبعد ذلك بعشر سنوات ظهر الجزء الثانى مشتملاً على «آخر رسائل من مصر» بالإضافة إلى مذكرات كتبها ابتنتها جانبى روس، وظهرت الطبعة الثانية عام ١٨٧٦، ثم ظهرت طبعة منقحة قدم لها جورج مريدث عام ١٩٠٢، وظهرت ترجمة عربية لبعض الرسائل وطبعت فى القاهرة منذ أربع سنوات.

عثرت على رسائل ليدى داف جورديون وقرأتها لأول مرة منذ حوالى خمس سنوات فى إنجلترا وبعد ذلك قرأتها للمرة الثانية والثالثة، ولم تفتننى مثلما فتتنى كتاب «إيوتن»، ولكنها هزتنى هزاً عنيفاً وتخللت عقلى كما لو كانت تجربة واقعية، وصفها الحى للفلاحين بصعيد مصر الذين عاشت بينهم ومخاوفها على مصيرهم وتطلعاتها لهم واهتمامها الإنسانى بهم واهتمامهم الإنسانى بها ، كل هذا أتذكره ولا يمكن أن يحى من ذاكرتى. ولا نجد فى هذه الرسائل رونقاً ولا بحثاً عن الطابع الشرقى ولا شيئاً من «أناية» الرحالة التى وصفها كنجليك فى كتاب «إيوتن»، ولكننا نجد إيماناً راسخاً بأخوة البشر وبالكرامة الإنسانية، وفيما يلى مقتطف من إحدى رسائلها:

«... تتحول شفقة المرء إلى عاطفة عندما يجلس وسط الناس ويحس بكل ما يقاسونه، مثلما أفعل أنا، وعلى الأقل لا أستطيع أن أصفح عن الأوروبيين والمسيحيين الذين يساعدون على تدمير هذه المزايم المخدوشة».

هذه هي طريققتها فى الكتابة عن الذين عاشت بينهم وأحببتهم، فلا تكتب بأسلوب صاحب أو رصين، وإنما بهدوء وصدق كما يكتب الإنسان عن أعز الأشياء عليه وأعظمها بروية وحماس معتدل بإخلاص وصدق، قال عنها مريدث إنها لم تكن الشخص الذى «يغطى من يعرفهم بغلالة ذهبية ويلمعهم» متلما يقول هوراس والبور عن مدام دي سيفينى، فلقد جعلتهم يلمعون من الداخل، ربما ببريق معتدل ولكن بطريقة معقولة لها مبرراتها، وهاهى رسالة من آخر رسائلها إلى زوجها :

«عزيزى أليك :

لا تفكر فى المجيء إلى هنا، حيث إنك تخشى الطقس الحار... أستطيع أن أنتظر النهاية بفارغ الصبر وسط أناس طيبين وعطوفين... وكان مشهد وداعهم لى فى الأقصر مشهداً محزناً لأنهم كانوا على ثقة من أنهم لن يرونى مرة أخرى، وكان عطف الجميع مؤثراً حقاً بداية من القاضى الذى أعد مقبرتى وسط مقابر عائلته إلى أكثر الفلاحين فقراً».

وماتت جوردون بعد ذلك بفترة قصيرة .

قائمة الكتب المذكورة فى النص

- Belzonui, Giovanni baptista, "Narrative of the Recent Discoveries in Egypt and Nubia" (1820).
- Carré, Jean - Marie, "Les voyageurs et écrivains français en Egypte" (1932).
- Curzon, Robert, "Visits to the Monasteries of the Levant" (1849).
- Duff-Gordon, Lady, "Letters from Egypt" (1865).
- , "Last letters from Egypt" (1877).
- Head, C.F., "Eastern and Egyptian Scenery" (1833).
- Henniker, Sir Frederick, "Notes during a Visit to Egypt" (1823).
- Kinglake, Alexander William, "Eothen" (1844).
- Lane, Edward William, "A Description of Egypt"
- , "The Manners and Customs of Modern Egyptians" (1826).
- Russell, "Egypt" (1831).
- Sherer, Moyle, "Scenes and Impressions in Egypt and Italy" (1825).
- St. John, Bayle, "Two Year's Residence in a Levantine Family" (1859).
- , "Village Life in Upper Egypt, With Sketches of the Said (1852)."
- St. John, James Augustus, "Isis" (1853).
- Thackeray, William Makepiece, "Notes of a Journey from Cornhill to Grand Cairo" (1846).
- Waghorn, Thomas, "Overland Guide to India by Three Routes to Egypt" (1844).
- Warburton, Eliot, "The Crescent and the Cross" (1845).
- Wilkinson, Sir John Gardner, "The Manners and Customs of Ancient Egyptians" (1837).
- , "The Topography of Thebes and General Survey of Egypt" (1835).

المحتويات

- مقدمة 5
- الفصل الأول : المقدمات 21
- الفصل الثاني : القاعة المصرية ورأس ممنون 25
- الفصل الثالث : طيبة وأبو سمبل 31
- الفصل الرابع : الدارسون الفنانون 35
- الفصل الخامس : البانوراما المصرية 39
- الفصل السادس : أخلاق وعادات المصريين المحدثين 43
- الفصل السابع : الطريق البرى والمجتمع المصرى 47
- الفصل الثامن : البحث عن الطابع الشرقى 51
- الفصل التاسع : رومانس وحقائق الرحلات إلى مصر 57
- الفصل العاشر : المرحلة الأخيرة 63

المؤلف فى سطور :

الدكتور رشاد رشدى (١٩١٢ - ١٩٨٢)

- أكاديمى وناقد وكاتب مسرحى ومترجم.
- أول رئيس مصرى لقسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة (جامعة فؤاد آنذاك).
- حصل على الدكتوراه من جامعة ليدز عام ١٩٥٠ ببحث عن الرحالة الإنجليز فى مصر فى عهد محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٨)، وكان أول خريج من الجامعة المصرية يحصل على الدكتوراه من إنجلترا.
- ألقى محاضرتين فى الجمعية الجغرافية عام ١٩٥٠، الأولى عن أدب الرحلة كجنس أدبى ازدهر فى القرن التاسع عشر، ولخص فى الثانية موضوع رسالته للدكتوراه، ونشر فى العام التالى سلسلة من الفصول المبسطة فى الموضوع نفسه ألقاها فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ونشرها بعد ذلك فى كتاب «سحر مصر» الذى بين أيدينا.

المترجم فى سطور :

الدكتور جمال الجزيرى

- أكاديمى وناقد ومترجم وكاتب قصة.
- حصل على الدكتوراه فى الأدب الإنجليزى من جامعة عين شمس.
- من مجموعاته القصصية «أساطير» (١٩٩٦)، و«فتافيت الصورة» (٢٠٠١)، وبدايات قلقة (٢٠٠٣). ومن كتبه النقدية «الحوار مع النص : جماعة بدايات القرن غوذجاً» (٢٠٠٢).
- له عدة ترجمات عن الإنجليزية من بينها : «أسطورة بروميشيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى» و«تروتسكى والماركسية» و«فرويد» و«رولان بارت»... وغيرها.

المراجعة فى سطور :

الدكتورة فاطمة موسى

- أكاديمية وناقدة ومترجمة.
- حاصلة على الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٥٧ برسالة موضوعها «الحكاية الشرقية فى الأدب الإنجليزى ١٧٨٦ : ١٨٧٤».
- رئيسة قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة (١٩٧٢ - ١٩٧٨).
- مقرر لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة.
- من مؤلفاتها باللغة العربية : بين أدبين : دراسات فى الأدب العربى والإنجليزى (١٩٦٥) - وليم شكسبير شاعر المسرح (١٩٦٩) - فى الرواية العربية المعاصرة (١٩٧٢) - سيرة الأدب الإنجليزى للقارئ العربى (١٩٩٧) - نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية (١٩٩٩) - سحر الرواية (٢٠٠٠). ومن مؤلفاتها بالإنجليزية : سير وليم جونز والرومانتيكيون (١٩٦٠) - الرواية العربية فى مصر من ١٩١٤ إلى ١٩٧٠ (١٩٧٠). ولها أكثر من ثلاثين بحثاً بالإنجليزية عن موضوعات مختلفة، ومن أشهر ترجماتها رواية نجيب محفوظ «ميرامار» (١٩٧٨) ومسرحية «الملك لير» لشكسبير (١٩٦٨)، كما أشرفت على إصدار خمسة أجزاء من قاموس المسرح (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦ : ١٩٩٩).
- حاصلة على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب (١٩٩٨).

المشروع القومي للترجمة

- ١- اللغة العليا (طبعة ثانية) جون كوين
- ٢- الوثنية والإسلام ك. مادهو باننيكار
- ٣- التراث المسروق جورج جيمس
- ٤- كيف تتم كتابة السيناريو انجا كاريتنكرفا
- ٥- ثريا في غيبوبة إسماعيل فصيح
- ٦- اتجاهات البحث اللساني ميلكا إفيتش
- ٧- العلوم الإنسانية والفلسفة لوسيان غولدمان
- ٨- مشعلو الحرائق ماكس فريش
- ٩- التغيرات البيئية أندرو س. جودي
- ١٠- خطاب الحكاية جيرار جينيت
- ١١- مختارات فيسوافا شيمبريسكا
- ١٢- طريق الحرير ديفيد براونستون وإيرين فرانك
- ١٣- ديانة الساميين روبرتسن سميث
- ١٤- التحليل النفسي للأب ج. بيلمان نويل
- ١٥- الحركات الفنية إدوارد لويس سميث
- ١٦- أثينة السوداء مارتن برنال
- ١٧- مختارات فيليب لاركين
- ١٨- الشعر التسائي في أمريكا اللاتينية مختارات
- ١٩- الأعمال الشعرية الكاملة جورج سفيريس
- ٢٠- قصة العلم ج. ج. كراوثر
- ٢١- خوخة وألف خوخة صمد بهرنجي
- ٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين جون أنتيس
- ٢٣- تجلي الجميل هانز جيورج جادامر
- ٢٤- ظلال المستقبل باتريك بارندر
- ٢٥- مثنوى مولانا جلال الدين الرومي
- ٢٦- دين مصر العام محمد حسين هيكل
- ٢٧- التنوع البشري الخلاق مقالات
- ٢٨- رسالة في التسامح جون لوك
- ٢٩- الموت والوجود جيمس ب. كارس
- ٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢) ك. مادهو باننيكار
- ٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامي جان سوفاجيه - كلود كابين
- ٣٢- الانقراض ديفيد روس
- ٣٣- التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية أ. ج. هويكنز
- ٣٤- الرواية العربية روجر آلن
- ٣٥- الأسطورة والحداثة پول . ب . ديكسون
- ت : أحمد درويش
- ت : أحمد فؤاد بليغ
- ت : شوقي جلال
- ت : أحمد الحضري
- ت : محمد علاء الدين منصور
- ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
- ت : يوسف الأنطكي
- ت : مصطفى ماهر
- ت : محمود محمد عاشور
- ت : محمد معقضم وعبد الجليل الأزدي وعمر طي
- ت : هناء عبد الفتاح
- ت : أحمد محمود
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : حسن المودن
- ت : أشرف رفيق عفيفي
- ت : يشارف أحمد عثمان
- ت : محمد مصطفى بدوي
- ت : طلعت شاهين
- ت : نعيم عطية
- ت : يمني طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
- ت : ماجدة العناني
- ت : سيد أحمد علي الناصري
- ت : سعيد توفيق
- ت : بكر عباس
- ت : إبراهيم الدسوقي شتا
- ت : أحمد محمد حسين هيكل
- ت : نخبة
- ت : منى أبو سنه
- ت : بدر الديب
- ت : أحمد فؤاد بليغ
- ت : عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب
- ت : مصطفى إبراهيم فهمي
- ت : أحمد فؤاد بليغ
- ت : حصة إبراهيم المنيف
- ت : خليل كلفت

- ٣٦- نظريات السرد الحديثة
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها
٣٨- نقد الحداثة
٣٩- الإغريق والحسد
٤٠- قصائد حب
٤١- ما بعد المركزية الأوروبية
٤٢- عالم ماك
٤٣- الذهب المزدوج
٤٤- بعد عدة أصناف
٤٥- التراث المغفور
٤٦- عشرون قصيدة حب
٤٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)
٤٨- حضارة مصر الفرعونية
٤٩- الإسلام في البلقان
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير
٥١- مسار الرواية الإسبانية أمريكية
٥٢- العلاج النفسي التدميمي
٥٣- الدراما والتعليم
٥٤- المفهوم الإغريقي للمسرح
٥٥- ما وراء العلم
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)
٥٨- مسرحيتان
٥٩- المحبرة
٦٠- التصميم والشكل
٦١- موسوعة علم الإنسان
٦٢- لذة النص
٦٣- تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)
٦٥- في مدح الكسل ومقالات أخرى
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية
٦٧- مختارات
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى
٦٩- العالم الإسلامي في أول القرن العشرين
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرعى
- والاس مارتين
بريجيت شيفر
آلن تورين
بيتر والكوت
آن سكستون
بيتر جرآن
بنجامين بارير
أوكتافيو پاث
ألوس هكسلى
روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين
بابلو نيرودا
رينيه ويليك
فرانسوا دوما
هـ . ت . نوريس
جمال الدين بن الشيخ
داريو بيانوبيا وخـ . م بينياليستي
بيتر . ن . ثوفاليس وستيفن . ج .
روچسيفيتز وروجر بيل
أ . ف . ألتجتون
ج . مايكل والتون
جون بولكنجهوم
فديريكو غرسية لوركا
فديريكو غرسية لوركا
فديريكو غرسية لوركا
كارلوس مونييث
جوهانز ايتين
شارلوت سيمور - سميث
رولان يارت
رينيه ويليك
آلان وود
برتراند راسل
أنطونيو جالا
فرناندو بيسوا
فالنتين راسيوتين
عبد الرشيد إبراهيم
أوخينيو تشانج رودريجت
داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
ت : جمال عبد الرحيم
ت : أنور مغيث
ت : منيرة كروان
ت : محمد عبد إبراهيم
ت : عطف لحد / إبراهيم قحى / مصد ملج
ت : أحمد محمود
ت : المهدي أخريف
ت : مارلين تادرس
ت : أحمد محمود
ت : محمود السيد على
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : ماهر جويجاتي
ت : عبد الوهاب علوب
ت : محمد بركة وعثمانى لليليد ويوسف الأنكى
ت : محمد أبو العطا
ت : لطفى قطيم وعادل دمرداش
ت : مرسى سعد الدين
ت : محسن مصيلحي
ت : على يوسف على
ت : محمود على مكى
ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
ت : محمد أبو العطا
ت : السيد السيد سهيم
ت : صبرى محمد عبد الغنى
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
ت : محمد خير البقاعى
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : رمسيس عوض
ت : رمسيس عوض
ت : عبد اللطيف عبد الحليم
ت : المهدي أخريف
ت : أشرف الصباغ
ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
ت : حسين محمود

- ٧٢- السباسبى العجوز
٧٣- نقد استجابة القارئ
٧٤- صلاح الدين والمالک فى مصر
٧٥- فن التراجم والسیر الذاتية
٧٦- چاک لاکان وإغواء التحليل النفسى
٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢
٧٨- العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩- شعورية التأليف
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»
٨١- الجماعات المتخيلة
٨٢- مسرح ميغيل
٨٣- مختارات
٨٤- موسوعة الأدب والنقد
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦- طول الليل
٨٧- نون والقلم
٨٨- الابتلاء بالتغرب
٨٩- الطريق الثالث
٩٠- رسم السيف
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢- أساليب ومضامين المسرح
٩٣- الإسبانيون أمريكي المعاصر
٩٤- محدثات العولة
٩٥- الحب الأول والصحة
٩٦- مختارات من المسرح الإسباني
٩٧- ثلاث زنبقات ووردة
٩٨- هوية فرنسا مع ١
٩٩- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى
١٠٠- تاريخ السينما العالمية
١٠١- مساطة العولة
١٠٢- النص الروائى (تقنيات ومناهج)
١٠٣- السياسة والتسامح
١٠٤- قبر ابن عربى يليه آياہ
١٠٥- أويرا ماهوجنى
١٠٦- مدخل إلى النص الجامع
١٠٧- الأدب الأندلسى
١٠٨- صورة الفنان فى الشعر الأمريكى المعاصر
- ت . س . إليوت
چين . ب . توميكنز
ل . ا . سيمينوفيا
أنثريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد رويرتسون
بوريس أوسپنسكى
الكسندر بوشكين
بنذكت أندرسن
ميغيل دى أونامونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكى أقطاى
جمال مير صادقى
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنطونى جينز
ميغل دى تريباس
باربر الاسوستكا
كارلوس ميغل
مايك فيذرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بويرو بايخو
قصص مختارة
فرنان برودل
نماذج ومقالات
ديفيد روينسون
بول هيرست وجراهام تومبسون
بيرنار فاليط
عبد الكريم الخطيبى
عبد الوهاب المؤيد
برتولت بريشت
چيرارجينيت
د. ماريا خيسوس روبييرامتى
نخبة
- ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومى
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد القانمى وناصر حلاوى
ت : مكارم الغمرى
ت : محمد طارق الشرقاوى
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالى
ت : عبد الحميد شيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحي يوسف شتا
ت : ماجدة العنانى
ت : إبراهيم الدسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محبى الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوى
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إيوار الخراط
ت : بشير السباعى
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحي
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتانى الإبريسى
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكارى
ت : عبد العزيز شبيل
ت : د. أشرف على دعدور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

- ١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي مجموعة من النقاد
١٠٩- حروب المياه جون بولوك وعادل درويش
١١٠- النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
١١١- المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون
١١٢- الاحتجاج الهادئ أرلين علوى ماكليود
١١٣- راية التمرد سادى پلانت
١١٤- مسرحيتا حماد كرنجى وسكان المستنقع رول شوينكا
١١٥- غرفة تخص المراء وحده فرجينيا وولف
١١٦- امرأة مختلفة (درية شقيق) سينثيا تلسون
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلي أحمد
١١٨- النهضة النسائية فى مصر بث بارون
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنبل
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلي أبو لغد
١٢١- الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات فاطمة موسى
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية نيتل الكسندر وفنابولينا
١٢٤- الفجر الكاتب جون جرائ
١٢٥- التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديفي
١٢٦- فعل القراءة ثولفانتج إيسر
١٢٧- إرهاب صفاء فتحى
١٢٨- الأدب المقارن سوزان باسنيت
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروته
١٣٠- الشرق يصعد ثانية أندريه جوندر فرانك
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين
١٣٢- ثقافة العولة مايك فيذرستون
١٣٣- الخوف من المرايا طارق على
١٣٤- تشريع حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت ت. س. إليوت
١٣٦- فلاحو الباشا كينيث كوتو
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية جوزيف مارى مواريه
١٣٨- عالم التلفزيون بين الجمال والعنف إيلينا تارونى
١٣٩- باريسقال ريشارد فاچنر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار هيريت ميسن
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى ديريك لايدار
١٤٤- صاحبة اللوكاندة كارلو جولدونى
- ت : محمود على مكى
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سميرة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : لميس النقاش
ت : بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبه من المترجمين
ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بلبح
ت : سمحه الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعى
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرين
ت : شوقى جلال
ت : لويس يقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحى
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبورى
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت : عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥- موت أرتيميو كروت
١٤٦- الورقة الحمراء
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس
١٥٠- التجربة الإغريقية
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج ١
١٥٢- عدالة الهند وقصص أخرى
١٥٣- غرام الفراعنة
١٥٤- مدرسة فرانكفورت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى
١٥٧- خسرو وشيرين
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج ٢
١٥٩- الإيديولوجية
١٦٠- آلة الطبيعة
١٦١- من المسرح الإسباني
١٦٢- تاريخ الكنيسة
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)
١٦٥- حكايات الثعلب
١٦٦- العلاقات بين التينين والعمالين في إسرائيل
١٦٧- في عالم طاغور
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة
١٦٩- إبداعات أدبية
١٧٠- الطريق
١٧١- وضع حد
١٧٢- حجر الشمس
١٧٣- معنى الجمال
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء
١٧٥- التليفزيون في الحياة اليومية
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية
١٧٧- أنطون تشيخوف
١٧٨- مختارات من الشعر اليوناني الحديث
١٧٩- حكايات أيسوب
١٨٠- قصة جاويد
١٨١- النقد الأدبي الأمريكي
١٨٢- العنف والنبوة
١٨٣- جان كوكو على شاشة السينما
- كارلوس فوينتس
ميجيل دي ليبس
تاتكريد دورست
إتريكي أندرسون إمبرت
عاطف فضول
روبرت ج. ليتمان
فرنان برودل
نخبة من الكتاب
فيولين فاتوك
فيل سليتر
نخبة من الشعراء
جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو
النظامى الكنوجى
فرنان برودل
ديفيد هوكس
بول إيرليش
اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
يوجنا الأسويى
جوردين مارشال
چان لاکوتير
أ. ن أفانا سيفا
يشعياهو ليتمان
رابنترات طاغور
مجموعة من المؤلفين
مجموعة من المبدعين
ميغيل دليبيس
فرانك بيچو
مختارات
ولتر ت. ستيس
ايليس كاشمور
لورينزو فيلشس
توم تيتبرج
هنرى تروايا
نخبة من الشعراء
أيسوب
إسماعيل فصيح
فنست ب. ليتش
و.ب. بيش
رينيه جيلسون
- ت : أحمد حسان
ت : على عبدالرؤف البمبى
ت : عبدالغفار مكارى
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : أسامة إسبر
ت : منيرة كروان
ت : بشير السباعى
ت : محمد محمد الخطابى
ت : فاطمة عبدالله محمود
ت : خليل كلفت
ت : أحمد مرسى
ت : مى التلمسانى
ت : عبدالعزيز بقوش
ت : بشير السباعى
ت : إبراهيم فتحى
ت : حسين بيومى
ت : زيدان عبدالحليم زيدان
ت : صلاح عبدالعزيز محبوب
ت : بإشراف: محمد الجوهري
ت : نبيل سعد
ت : سهر المصادفة
ت : محمد محمود أبو غدير
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : بسام ياسين رشيد
ت : هدى حسين
ت : محمد محمد الخطابى
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : أحمد محمود
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : جلال البنا
ت : حصه إبراهيم المنيف
ت : محمد حمدي إبراهيم
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : سليم عبد الأمير حمدان
ت : محمد يحيى
ت : ياسين طه حافظ
ت : فتحى العشرى

- ١٨٤- القاهرة... حالة لا تنام
١٨٥- أسفار العهد القديم
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل
١٨٧- الأرضة
١٨٨- موت الأدب
١٨٩- العمى والبصيرة
١٩٠- محاورات كونفوشيوس
١٩١- الكلام وأسمال
١٩٢- رحلة إبراهيم بك جـ
١٩٣- عامل المنجم
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي
١٩٥- شتاء ٨٤
١٩٦- المهلة الأخيرة
١٩٧- القاروقى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية
٢٠٠- ضحايا التنمية
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ ١
٢٠٣- الشعر والشاعرية
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات
٢٠٦- الهيدروية تصنع علماً جديداً
٢٠٧- ليل إفريقي
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى
٢٠٩- السرد والمسرح
٢١٠- مشنويات حكيم سنائى
٢١١- فريديناند دوسوسير
٢١٢- قصص الأمير مرزيان
٢١٣- مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبدالناصر
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك جـ ٢
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم
٢١٧- مسرحيتان طليعتان
٢١٨- لعبة الحجلة (رايولا)
٢١٩- بقاء اليوم
٢٢٠- الهيدروية فى الكون
٢٢١- شعرية كفافى
- هانز إيندورفر
توماس تومسن
ميخائيل إينود
بُزْجْ علوى
الفين كرنان
بول دى مان
كونفوشيوس
الحاج أبو بكر إمام
زين العابدين المرافى
بيتر أبراهامز
مجموعة من النقد
إسماعيل نصيح
فالتين راسبوتين
شمس العلماء شيلى التعمانى
انوين إمري وآخرون
يعقوب لاندائى
جيرمى سيبورك
جوزايا رويس
رينيه ويليك
الطاف حسين حالى
اللمان شازار
لويجى لوقا كافاللى- سفورزا
جيمس جلايك
رامون خوتاسنديز
دان أوربان
مجموعة من المؤلفين
سنائى الفزنوى
جوناثان كلر
مرزيان بن رستم بن شروين
ريمون فلاور
أتوتوى جيننز
زين العابدين المرافى
مجموعة من المؤلفين
ص. بيكيت
خوليو كورتازان
كارو ايشجورو
بارى باركر
جريجورى جوزدانيس
- ت: تسوقى سعيد
ت: عبد الوهاب علوب
ت: إمام عبد الفتاح إمام
ت: محمد علاء الدين منصور
ت: بدير الديب
ت: سعيد الغانمى
ت: محسن سيد فرجاني
ت: مصطفى حجازى السيد
ت: محمود سلامة علاوى
ت: محمد عبد الواحد محمد
ت: ماهر شفيق فريد
ت: محمد علاء الدين منصور
ت: أشرف الصباغ
ت: جلال السعيد الحفناوى
ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
ت: جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد الطيف حماد
ت: فخرى ليبي
ت: أحمد الانتصارى
ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت: جلال السعيد الحفناوى
ت: أحمد محمود هويدى
ت: أحمد مستجير
ت: على يوسف على
ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
ت: محمد أحمد صالح
ت: أشرف الصباغ
ت: يوسف عبد الفتاح فرج
ت: محمود حمدى عبد الفنى
ت: يوسف عبد الفتاح فرج
ت: سيد أحمد على الناصرى
ت: محمد محمود محى الدين
ت: محمود سلامة علاوى
ت: أشرف الصباغ
ت: نادية البنهاوى
ت: على إبراهيم على منوفى
ت: طلعت الشايب
ت: على يوسف على
ت: رفعت سلام

- ٢٢٢- فرانز كافكا
٢٢٣- العلم في مجتمع حر
٢٢٤- دمار يوغسلافيا
٢٢٥- حكاية غريق
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى
٢٢٧- المسرح الإسباني في القرن السابع عشر
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
٢٢٩- مازق البطل الوحيد
٢٣٠- عن الذباب والقرآن والبشر
٢٣١- الدرافيل
٢٣٢- ما بعد المعلومات
٢٣٣- فكرة الاضمحلال
٢٣٤- الإسلام في السودان
٢٣٥- ديوان شمس تبریزی ج ١
٢٣٦- الولاية
٢٣٧- مصر أرض الوادي
٢٣٨- العولة والتحرير
٢٣٩- العربي في الأدب الإسرائيلي
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار
٢٤١- في انتظار البرابرة
٢٤٢- سبعة أنماط من القفوض
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ١
٢٤٤- الفليان
٢٤٥- نساء مقاتلات
٢٤٦- مختارات قصصية
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحدائق في مصر
٢٤٨- حقول عدن الخضراء
٢٤٩- لغة التمزق
٢٥٠- علم اجتماع العلوم
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج ٢)
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية
٢٥٤- الفلسفة
٢٥٥- أفلاطون
٢٥٦- ديكارت
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة
٢٥٨- الفجر
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور
- رونالد جرای
بول فيرابنر
برانكا ماجاس
جابريل جارشيا ماركت
ديفيد هربت لورانس
موسی ماردیا ديف بورکی
جانیت وولف
نورمان کیجان
فرانسواز جاکوب
خایمی سالوم بیدال
توم ستینر
آرثر هومان
ج. سینسر تریمنجهام
جلال الدین مولوی رومی
میشیل تود
روین فیرین
الانکاد
جیلارفر - رایوخ
کامی حافظ
ج . م کویتز
وليام إمبسون
لیفی بروفنسال
لورا اسکبیل
إلیزابیتا ادیس
جابريل جارشيا ماركت
والتر إرمبريست
أنطونیو جالا
دراجو شتامیوک
دومنيك فينيك
جوردن مارشال
مارجو بدران
ل. أ. سيمينوفا
ديف روينسون وجودی جروفز
ديف روينسون وجودی جروفز
ديف روينسون ، کريس جرات
وليم کلی رايت
سير أنجوس فريزر
اقلام مختلفة
- ت: نسيم مجلى
ت: السيد محمد نقادى
ت: منى عبدالظاهر إبراهيم السيد
ت: السيد عبدالظاهر السيد
ت: طاهر محمد على البربري
ت: السيد عبدالظاهر عبدالله
ت: ماري تيريز عبدال المسيح وخالد حسن
ت: أمير إبراهيم العمري
ت: مصطفى إبراهيم فهمي
ت: جمال أحمد عبدالرحمن
ت: مصطفى إبراهيم فهمي
ت: طلعت الشايب
ت: فؤاد محمد عكود
ت: إبراهيم التسوقي شتا
ت: أحمد الطيب
ت: عنيات حسين طلعت
ت: ياسر محمد جاد الله وعربي مديولى أحمد
ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
ت: ابتسام عبدالله سعيد
ت: صبري محمد حسن عبدالنبي
ت: علي عبدالرؤف البعبي
ت: نادية جمال الدين محمد
ت: توليق علي منصور
ت: علي إبراهيم علي منوفى
ت: محمد طارق الشرقاوى
ت: عبداللطيف عبدالحميد عبدالله
ت: رفعت سلام
ت: ماجدة محسن أباطة
ت: بإشراف: محمد الجوهري
ت: علي بدران
ت: حسن بيومي
ت: إمام عبد الفتاح إمام
ت: إمام عبد الفتاح إمام
ت: إمام عبد الفتاح إمام
ت: محمود سيد أحمد
ت: عباده كحيلة
ت: فاروجان كازانچيان

- ٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع ج٢
٢٦١- رحلة في فكر زكي نجيب محمود
٢٦٢- مدينة المعجزات
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة
٢٦٥- روايات مترجمة
٢٦٦- مدير المدرسة
٢٦٧- فن الرواية
٢٦٨- ديوان شمس تيريزي ج٢
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١
٢٧٠- وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢
٢٧١- الحضارة الغريبة
٢٧٢- الأديرة الأثرية في مصر
٢٧٣- الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط
٢٧٤- السيدة باربارا
٢٧٥- ت. س إليوت شاعرا وناقدا وكاتب مسرحيا
٢٧٦- قنون السينما
٢٧٧- الجينات: الصراع من أجل الحياة
٢٧٨- البدايات
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية
٢٨٠- من الأدب الهندي الحديث والمعاصر
٢٨١- الفردوس الأعلى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية
٢٨٣- السهل يحترق
٢٨٤- هرقل مجنونا
٢٨٥- رحلة الخواجة حسن نظامي
٢٨٦- رحلة إبراهيم بك ج٢
٢٨٧- الثقافة والعولة والنظام العالمي
٢٨٨- الفن الروائي
٢٨٩- ديوان منجوهري الدامغاني
٢٩٠- علم اللغة والترجمة
٢٩١- المسرح الإسباني في القرن العشرين ج١
٢٩٢- المسرح الإسباني في القرن العشرين ج٢
٢٩٣- مقدمة للأدب العربي
٢٩٤- فن الشعر
٢٩٥- سلطان الأسطورة
٢٩٦- مكبث
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية
- جوردين مارشال
زكي نجيب محمود
إيوارد مندوثا
جون جرين
هوراس/ شلي
أوسكار وايلد وصموئيل جونسون
جلال آل أحمد
ديفيد لودج
جلال الدين الرومي
وليم چيفور بالجريف
وليم چيفور بالجريف
توماس سي. ياترسون
س. س والترز
جوان آر. لوك
رومولو جلاجوس
أقلام مختلفة
فرانك جوتيران
بريان فورد
إسحق عظيموف
ف.س. سوندرز
بريم شند وآخرون
مولانا عبد الحليم شرر الكهنوي
لويس ولبيرت
خوان رولفو
يوريبينديس
حسن نظامي
زين العابدين المراغي
انتوني كنج
ديفيد لودج
أبو نجم أحمد بن قوص
جودج مونا
فرانشسكو رويس رامون
فرانشسكو رويس رامون
روجر آلان
يوالو
جوزيف كاميل
وليم شكسبير
ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهواني
- ت: بإشراف: محمد الجوهري
ت: إمام عبد الفتاح إمام
ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
ت: علي يوسف علي
ت: لويس عوض
ت: لويس عوض
ت: عادل عبد المنعم سويلم
ت: ماهر البطوطي
ت: إبراهيم الدسوقي شتا
ت: صبري محمد حسن
ت: صبري محمد حسن
ت: شوقي جلال
ت: إبراهيم سلامة
ت: عنان الشهاوي
ت: محمود مكي
ت: ماهر شفيق فريد
ت: عبد القادر التمساني
ت: أحمد فوزي
ت: ظريف عبدالله
ت: طلعت الشايب
ت: سمير عبد الحميد
ت: جلال الحفناوي
ت: سمير حنا صادق
ت: علي البعبي
ت: أحمد عثمان
ت: سمير عبد الحميد
ت: محمود سلامة علاوي
ت: محمد يحيى وآخرون
ت: ماهر البطوطي
ت: محمد نور الدين عبد المنعم
ت: أحمد زكريا إبراهيم
ت: السيد عبد الظاهر
ت: السيد عبد الظاهر
ت: نخبة من المترجمين
ت: رجاء ياقوت صالح
ت: بدر الدين حب الله الديب
ت: محمد مصطفى بلوي
ت: ماجدة محمد أنور

٢٩٨- مناساة العبيد	أبو بكر تفاعايلويه	ت: مصطفى حجازي السيد
٢٩٩- ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت: هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠- أسطورة برومثيوس في الأدبين	لويس عوض	ت: جمال الجزيري وبهاء چاهين
الإنجليزية والفرنسي مج١		وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة برومثيوس في الأدبين	لويس عوض	ت: جمال الجزيري و محمد الجندي
الإنجليزية والفرنسي مج٢		
٣٠٢- فنجنشتين	جون هيتون وجودي جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣- بوذا	جين هوب ويورن فان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- ماركس	ريوس	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد	كروزيو مالابارته	ت: صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة - النقد الكانطي للتاريخ	جان - فرانسوا ليوتار	ت: نبيل سعد
٣٠٧- الشعور	ديفيد باينو	ت: محمود محمد أحمد
٣٠٨- علم الوراثة	ستيف جونز	ت: معنوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩- الذهن والمخ	أنجوس چيلاتي	ت: جمال الجزيري
٣١٠- يونج	ناجي هيد	ت: محيي الدين محمد حسن
٣١١- مقال في المنهج الفلسفي	كولتجوود	ت: فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم دي بويز	ت: أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية	خاير بيان	ت: عبدالله الجعدي
٣١٤- الفن كعدم	جيتس مينيك	ت: هويدا السباعي
٣١٥- جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروتدينو	ت: كاميليا صبحي
٣١٦- محاكمة سقراط	آ.ف. ستون	ت: نسيم مجلي
٣١٧- بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	ت: أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت: أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايتو ياسييفاك وكريستوفر نوريس	ت: حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج في حضرة التاج	مؤلف مجهول	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية٢	ليفي برو فنسال	ت: نخبة من المترجمين
٣٢٢- وجهات غربية حديثة في تاريخ الفن	دبليو يوجين كلينبارد	ت: خالد مفلح حمزه
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونثاني قديم	ت: هانم سليمان
٣٢٤- اللعب بالنار	أشرف أسدي	ت: محمود سلامة علاوي
٣٢٥- عالم الآثار	فيليب بوسان	ت: كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت: حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت: توفيق علي منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت: محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شيرد	ت: سامي صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين	ستيفن جرائ	ت: سامية دياب
٣٣٢- القصة القصيرة في إسبانيا	نخبة	ت: علي إبراهيم علي منوفي
٣٣٣- الإسلام في بريطانيا	نبيل مطر	ت: بكر عباس

٣٣٤- لقطات من المستقبل	أرثر.س. كلارك	ت: مصطفى فهمي
٣٣٥- عصر الشك	ناتالي ساروت	ت: فتحى العشري
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص قديمة	ت: حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصارى
٣٣٨- قصص قصيرة من الهند	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب في إيران ج٢	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيريريجلو	ت: فخرى ليب
٣٤١- قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت: حسن حلمي
٣٤٢- سلامان وأيسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازي الزائل	نادين جورديمر	ت: سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت في الشمس	بيتر بلانجوه	ت: سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	ت: جمال الجزيرى

رقم الإيداع: ٤٧٠٦ / ٢٠٠٥